أشكال الحوار وبنيته في السيرة النبوية

obeikan.com

obeikan.com

اتخذ الحوار بين الرسول ﷺ، ومَن حوله أشكالاً وطُرقًا عدة، حسب طبيعة القضية المطروحة من قبل الرسول ﷺ أو ما يطرحه الآخرون عليه من أمور ومستجدات وأسئلة ومواقف. ومن الأهمية بمكان عرض القالب الحواري، فهو مرتبط بالقضايا المطروحة، ويعبِّر عن طبيعة العلاقة بين الرسول وبين من يحاورهم.

ولكي تتضح الصورة أكثر في كيفية تكوين القالب الحواري النبوي، تجدر الإشارة إلى أن الرسول ﷺ كان مُعلمًا متحرِّكًا، في مدرسة دون جدار، فصولها: المسجد والشارع والمنزل والسوق والغزوة، أي هي مفتوحة على المجتمع بأسره، بمختلف أطيافه، وفئاته، وجماعاته. وهذا الحوار بدأ منذ الدعوة في مكة المكرمة، وكان المجتمع حوله ﷺ وثنيًا ومشركًا، إلا الفئة القليلة التي آمنت وثبتت مع النبي ﷺ، وفي نفس الوقت هم أهله وعشيرته وأقرباؤه، ومكة الموطن الذي وُلِد وعاش فيه الرسول ﷺ، وفيه بُعث ومنه هاجر ثم عاد فاتحًا منتصرًا، فطبيعة الحوار وقضاياه كانت متصلة بالمجتمع المكي. فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة كان المجتمع مختلفًا، فيثرب / المدينة كانت مؤمنة بالدعوة الإسلامية قبل قدوم المصطفى ﷺ بفضل الله ثم جهود مصعب بن عمير رضي الله عنه في نشر الإسلام بين أبناء يثرب وهم العرب في قبيلتي الأوس والخزرج، ولكن على أطراف المدينة وجدت تجمعات يهودية مثل بني النضير وبني قينقاع وخيبر. وبعبارة أخرى، فإن الحوار النبوي تشكل حسب البيئة المكانية، والفترة الزمانية، وطبيعة الشخصيات والجماعات التي حاورت الرسول ﷺ.

ويمكن أن نوضح أبرز أشكال الحوار النبوي في أربعة مباحث:

١) استخدام الجوارح في الحوار.

٢) الاستفهام.

٣) الحدث والتعليق.

٤) القصة نموذجا للحوار.

المبحث الأول

استخدام الجوارح في الحوار

ويقصد به حضور أعضاء الجسد في الحوار، وهي جزء أساس من مكملات الحوار، لا ينفك عنه، ومن المهم أن يدخل هذا في تحليل الخطاب الحواري. وهي ما تسمى في علم الاتصال المعاصر بتسميات عدة مثل: علم الاتصال غير اللفظي، واللغة الجسدية، والكلام الجسدي، والحركة الجسدية، والسلوك الحركي، والعلامات الحركية [١١٣]. وتدور في مجملها حول تفسير وتأويل تعبيرات الجسد، بوصفها وسيلة مكملة للحوار المنطوق، فاللسان جزء من عدة أجزاء تظهر في السلوك الحواري [١١٤].

وبالطبع فإن الاتصال باستخدام الجوارح أساس في الحوار الشفاهي، ذلك لأن الرسول (منشيء النص والحوار) كان يتعمد أو لا يتعمد استخدام بعض جوارحه في حديثه، وإن تمَّ تدوين فعل الجوارح كتابيًا بعد ذلك، فهذا تمَّ لأن حركة الجوارح جزء من الحوار ذاته. قد حرص مدونو الأحاديث الشريفة وأحداث السيرة النبوية على الوصف الدقيق لأحوال الرسول ﷺ الحركية والسلوكية، فبتنا أمام نصوص جمعت القول والسلوك الحركي، ويتعين على دارس النص النبوي أن يدخل في حسبانه سلوك المصطفى ﷺ في حواراته ومواقفه.

لقد كان لدى المصطفى ﷺ وعيٌ كبيرٌ بما يسمى "محددات التعبير الجسدي" وهي تتناول تعبيرات الجسد في ضوء الظروف الاجتماعية وملابسات الموقف والعُرف والعادة، مثل طريقة الإصغاء والنظر للمتكلم ونبرة الكلام خُفوتًا وارتفاعًا، وأيضًا الحركات السلبية مثل الاستنكار بالنظرات والرفض باليد والإدانة

---

١١٣) العبارة والإشارة : دراسة في نظرية الاتصال، د. محمد العبد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ص١١٤.
١١٤) السابق، ص١١٣.

بالانسحاب من المكان وغير ذلك [١١٥]. فقد كان الرسول "إذا كره الشيء عرف في وجهه... وكان طويل السكوت، ولم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخَّابًا" [١١٦]. وكان "إذا خطب (لأمرٍ جلل) احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه" [١١٧] في إشارة إلى عظم الأمر، وأهمية القضية، خاصة إذا كان في أمر يخالف شرع الله تعالى.

وستتم دراسة هذا المنحى عبر ثلاثة محاور، تتصل بزمن الحوار: قبل وأثناء وبعد الحوار.

أ) ما قبل الحوار المنطوق:

وهي أول محددات الاتصال غير المنطوق، وتتصل بكيفية تكوين الرسالة والخطاب النبوي، وكيف كان المصطفى ﷺ حريصًا على جذب الذات المتلقية، وتشويقها للنصح والإرشاد دون إرهاق أو عنت أو كثرة في القول. ونرى هذا في شهادة الصحابة عليهم الرضوان حول النهج النبوي الشريف في اختيار الوقت والموقف.

– من ذلك: ما يذكره ابن مسعود ﷺ قال: كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة كراهة السآمة علينا[١١٨]. فاختيار الوقت للموعظة عامل مهم في تقبلها، وأيضًا مراعاة المكان والحالة النفسية للسامعين حاسم، فالنفس البشرية تنفر من تراكم المواعظ، وتعدد الدروس، كما أن كثرة الوعظ قد ينسي بعضه البعض. ويبدو أن هذا المحدد الاتصالي غير مباشر في تحليل الخطاب النبوي، أي تحليل ما يقال، ولكنه مؤثر في فهم طبيعة منشيء الرسالة الحوارية وهو الرسول ﷺ، وهذا نقطة

١١٥) العبارة والإشارة، ص١٥٦، ١٥٧.
١١٦) زاد المعاد، ج١، ص٦٦.
١١٧) زاد المعاد، ج١، ص٦٧.
١١٨) صحيح البخاري، المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق وشرح وترقيم ومراجعة : محب الدين الخطيب، محمد فؤاد عبد الباقي، وقصي محب الدين الخطيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج١، ص٤٢، رقم (٦٨)، كتاب العلم.

تتصل بما قبل المنطوق، لأنها توضح سلوك الرسول اللغوي، وكيف كان عليما ببواطن النفس البشرية وخبايا تقلباتها.

– وعن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: كانت رسول الله ﷺ إذا أمَرَهم، أمرَهم من الأعمال بما يطيقون. قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيغضب ﷺ حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا [١١٩].

في الحديث السابق إضافة معرفية جديدة، تتصل بالعمل المكلف به المؤمن، فإذا كان الرسول يتحرج من كثرة النصيحة، ويتخوّل الناس بها، فهو أيضًا لا يأمرهم من الأفعال العملية العبادية بالكثير؛ تخفيفًا عليهم. وحينما يعترضون مطالبين بالمزيد يغضب، ويبدو الغضب في قسماته، مؤكدًا أنه أعلم وأتقى منهم وهو حريص عليهم. وظهور الغضب في وجهه ﷺ دال على كراهيته الإثقال على الناس، ورغبته أن يقوموا بما يطيقون من عمل، فما قلَّ وكفي خيرٌ مما كثر وألهى.

– عن أبي هريرة ﵁ قال: قلتُ يا رسول الله، إني رجلٌ شابٌّ، وأنا أخاف على نفسي العنت [هو المشقة والدلالة هنا كناية عن الإثم] ولا أجد ما ما أتزوج به النساء. فسكت [النبي] عني، ثم قلت مثل ذلك، فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة جفَّ القلم بما أنت لاقٍ، فاختص على ذلك أو ذر" [١٢٠]. والمقصود: لابد من نفاذ الأمر المقدر سواء اشتكى أبو هريرة أو لم يشتكِ. وهنا نجد أن الرسول ﷺ سكت ثلاث مرات، لعلّ أبا هريرة يدرك المغزى، فلما كرر السؤال، أوضح الرسول الموقف ببلاغة موجزة، مستعملا الكناية "جفَّ القلم"، في إشارة إلى أن الأمر حُسِم، فعليه أن يحتمل مشقة البُعد عن النساء حتى تتحقق مشيئة الله تعالى وما قدَّره جلَّ وعلا له.

---

١١٩) صحيح البخاري، ج١، ص٢٣، رقم ٢٠، كتاب الإيمان.

١٢٠) صحيح البخاري، ج٣، ص٣٥٧، رقم ٥٠٧٦، كتاب النكاح. والشرح للمحققين.

ب) ما يصاحب الحوار المنطوق:

ويتناول الإشارات الجسدية المعبِّرة، التي تقدِّم موافقة أو نفيًا أو إكمالاً للمنطوق في معناه، وتكون في عمومها مصاحبة له.

– فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج" قيل يا رسول الله، وما الهرج؟ فقال: هكذا –بيده فحرَّفها– كأنه يريد القتل" (١٢١).

إنَّ حركة اليد هنا أغنت عن الإجابة، فهي تشير لفعل القتل، وهو أشد حالات الهرج والفتنة، فجاءت الحركة إجابة عن سؤال، دون ذكر اللفظ المقصود، وحملت في الوقت ذاته إدانة خفية للفتنة، التي قد تصل بالناس إلى القتل.

– وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ سُئِل في حجته فقال [يقصد السائل]: ذبحتُ قبل أن أرمي، فأومأ بيده، قال: ولا حرج. قال [السائل]: حلقتُ قبل أن أذبح، فأومأ بيده: ولا حرج (١٢٢).

وهنا نجد أن الإجابة عن السؤال الأول جاءت باليد والقول معًا: الإيماء باليد بالموافقة، ثم نطق "ولا حرج"، بينما في السؤال الثاني اكتفى الرسول ﷺ بالإيماء فقط. وهذا عائد إلى طبيعة الموقف ذاته، فالناس في حج، والكل متجمع حول الرسول ﷺ، وقد تُغني الإشارة عن المقولة في هذا التزاحم، والإشارة تصل لجمهور أكبر، ذلك أن العين تدرك من بعيد ما لا تسمعه الأذن، وأيضًا حرصٌ منه ﷺ على الإجابة عن كل استفسار.

وقد تأتي الحركة الجسدية تأكيدًا وتوضيحًا للمعنى المقدم في القول.

– عن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" وشبّك أصابعه (١٢٣).

---

١٢١) صحيح البخاري، ج١، ص٤٧، رقم ٨٤ ، كتاب العلم.
١٢٢) صحيح البخاري، ج١، ص٤٧، رقم ٨٣، كتاب العلم.
١٢٣) صحيح البخاري، ج١، ص١٧١، رقم ٤٨١، كتاب الصلاة.

فالمعنى المقصود ذُكِر في المتن القولي وهو التأكيد على لُحمة الجماعة المؤمنة، ممثلة في اللبنة الأولى وهي المؤمن الفرد في علاقته مع أخيه المؤمن، واشتمل القول على تشبيه سهل، وهو تشبيه مُستقى من النبع القرآني من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}(١٢٤). والتشبيه بالصف ورد في السياق القرآني في معرض أن الله تعالى يحب المؤمنين المجاهدين في سبيله، فهم مثل البنيان المرصوص. ولكن الرسول ﷺ يستحضر التشبيه القرآني في ذاكرة السامع، موسعًا دلالة التشبيه إلى فضاء أرحب وأشمل، وهو فضاء الحياة المدنية اليومية. ثم جاءت حركة الأصابع المشبَّكة، عقب الانتهاء من المنطوق، لتؤكد الدلالة، وتوضح أن البنيان إنما هو لبنات متفرقة جُمِعَت، مثل وحدة الكفين، ومن أصابع متفرقة التأمت.

– وعن سهل قال: قال رسول الله ﷺ: "بُعثتُ أنا والساعة كهاتين" ويشير بإصبعيه فيمدهما. وفي رواية أخرى عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: "بُعثتُ أنا والساعة كهاتين". وفي رواية ثالثة عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "بُعثتُ أنا والساعة كهاتين. يعني إصبعين" (١٢٥).

يشمل هذا الحديث الشريف رؤية ممتدة عبر الزمان، الماضي السحيق والحاضر والمستقبل القريب، فالرسول ﷺ علامة من علامات الساعة / يوم القيامة، هذا قياس بعمر الكون، الذي يمتد إلى ملايين السنين، فظهور النبي ﷺ يعني أن نهاية الكون باتت قريبة، في عُرف التاريخ البشري، وقد أفاض ﷺ في أحاديث أخرى عن علامات الساعة، ولكنه في هذا الحديث يقف عند العلامة الكبرى، وهي بعثه بالقرآن الكريم، الذي حمل الرسالة الخاتمة الشاملة الهادية لكل البشر، فلم يبق أمام البشر إلا الإيمان به، فقد باتت النهاية قريبة، للجنس البشري على الأرض، ربما تكون آلافًا من السنين، ولكنها في مجملها قريبة بشكل كبير قياسًا بعمر الكون. جاءت حركة إصبعي الرسول ﷺ في حالة المدِّ والضمِّ إفهامًا

١٢٤) سورة الصف، الآية (٤).
١٢٥) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٢ الأحاديث رقم : ٦٥٠٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥،كتاب الرقاق.

واضحًا للسامع بهذا المنظور الزمني المعقد، والذي تُتعَب العقول في إدراك أبعاده، ولكن بحسب الإنسان أن يدرك أنه مؤمن بالرسالة الخاتمة، رسالة التوحيد التي لا رسالة ولا رسول بعدها.

– عن خالد بن الوليد ﷺ قال: أتى النبي ﷺ بضبٍّ مشوي، فأهوى إليه ليأكل، فقيل له: إنه ضبّ، فأمسك يده. فقال خالد: أحرامٌ هو؟ قال: لا، ولكنه لا يكون بأرض قومي، فأجدني أعافه. فأكل خالد ورسول الله ﷺ ينظر" [١٢٦].

إننا هنا أمام حكم شرعي جاء منطوقًا، ومصاحبًا برضا الرسول ﷺ، فكون الرسول عافى أكل الضب، فلأنه غير معتاد عليه، لأنه غير متواجد بالأرض التي نشأ فيها الرسول ﷺ، وهذا لا يعني تحريمه، ردًّا على سؤال خالد، فأكل خالد، والرسول ينظر إليه. ونرى سلوك الرسول ﷺ بتصرفين: الأول معافاته الطعام فور سماعه بما هو، وهو تصرف فردي غير مرتبط بالحكم الشرعي الذي أوضحه بالمنطوق الحواري، ثم بقاؤه في المكان ونظره لخالد وهو يأكل، تعضيدًا للحكم الشرعي الذي أطلقه الرسول ﷺ.

ج) ما بعد الحوار المنطوق:

ويتناول الحركات التي أحدثها الرسول ﷺ عقب الانتهاء من حواره، أو تعقيبه على بعض الأمور.

– فعن عمر بن سعيد قال: أخبرني ابن أبي مُلَيكة، أن أبا عمرو ذكوان مولى عائشة أخبره أن عائشة ﷺ كانت تقول: إن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة – أو علبة فيها ماء يشك عمر– فجعل يدخل يده في الماء، فيمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات، ثم نصب يده فجعل يقول: في الرفيق الأعلى، حتى قبض ومالت يده"[١٢٧]. يصف الحديث حالة وفاة الرسول ﷺ في اللحظات الأخيرة، وقد كانت أعين السيدة عائشة التي توفي الرسول في حجرها مسلطة على

١٢٦) صحيح البخاري، ج٣، ص٤٣٥، ٤٣٦، رقم ٥٤٠٠، كتاب الأطعمة.
١٢٧) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٣، رقم ٦٥١٠، والركوة من الأدم والعلبة من الخشب

سلوك المصطفى في لحظات احتضاره، ونقلت بأمانة هذه اللحظات، كان ﷺ يمسح بالماء وجهه، ويعلمنا ببشريته، وأنه يعاني من سكرات الموت وهو الحبيب المصطفى من قبل الله تعالى، ويظل ذاكرًا الشهادة التي تحمل خلاصة رسالته وهي التوحيد، مردِّدًا إياها، رافعًا يده، مستحضرًا الله تعالى أمام عينيه (في الرفيق الأعلى)، ونرى مشهد الوفاة، حيث قُبِض فعرفت السيدة عائشة ذلك بميل يده التي كانت منتصبة في إشارة على الحياة، فلما مالت حملت إشارة الموت. هنا نجد حوارًا بشكل مختلف، إنه كلمات نطقها الرسول في لحظات وفاته ﷺ، ولكنها كانت لونًا من الحوار الذاتي، والرسول مقبل على اللحاق بالرفيق الأعلى، فكانت كلماته الأخيرة تعلمنا أن على المسلم أن يلفظ الشهادة ويتحضر الذات الإلهية وهو في لحظات الوداع.

– وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رجال من الأعراب جفاة، يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم، فيقول: أن يعش هذا لا يدركه الهرمُ حتى تقوم عليكم ساعتكم"[١٢٨].

الأعراب الجفاة يخوضون فيما لا علم لهم ولا للرسول ﷺ به، وهو موعد قيام الساعة، ولم تأت إجابة الرسول بنفي العلم كما يتوقع المستمع، بقدر ما جاءت بطريقة مختلفة، لقد حوّلت التساؤل من المنحى الجدلي الذي لا ينبني عليه عمل – في حالة نفي الرسول لعلمه بموعد يوم القيامة– إلى حالة من الفهم الإيجابي لساعة المرء الحقيقية، وهي عند موته، فلا يعني المسلم متى تقوم يوم القيامة: بعد عام أو ألف أو مليون، بقدر ما يعنيه ماذا قدَّم لنفسه من أعمال صالحة يوم القيامة، وقد جاءت إجابة الرسول مذكرةً هؤلاء بموعد ساعتهم "فالمراد ساعة المخاطبين... و[الساعة] الصغرى موت الإنسان فساعة كل إنسان موته" [١٢٩]، فلو عاش أصغر

---

١٢٨) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٣، رقم ٦٥١١. قال هشام (راوي الحديث) : يعني موتهم، كتاب تفسير القرآن.

١٢٩) " فتح الباري شرح صحيح البخاري "، ابن حجر العسقلاني المصري، منشور على موقع www.al-eman.com كتاب سكرات الموت : وأطلقت الساعة على ثلاثة أشياء: الساعة الكبرى وهي بعث الناس للمحاسبة والوسطى وهي موت أهل القرن الواحد نحو ما روى أنه رأى عبد الله بن أنيس فقال: إن يطل عمر هذا الغلام لم يمت حتى تقوم الساعة فقيل أنه آخر من مات من الصحابة والصغرى موت الإنسان فساعة كل إنسان موته.

السائلين سِنًّا، سيرى ساعة كل واحد منهم، وهي يوم موته، وبعد الموت: الحساب الأصغر في القبر، ثم الحساب الأكبر يوم الساعة الكبرى يوم القيامة.

جاءت نظرة الرسول إلى الأصغر سِنًّا إشارة حسية منه ﷺ فقد صحَّح المفهوم الجدلي بنظرته إلى الأصغر سِنًّا، كأنه يعيد بنظرته الفهم الحقيقي لقيامة المسلم، وهي القيامة الصغرى، "فكل من مات فقد قامت قيامته، وحان حينه"[١٣٠]. وسميت القيامة الصغرى لأن القيامة الكبرى هي يوم البعث والنشور، وبعض منكري البعث (الملاحدة) يرددون أن القيامة الكبرى هي الموت، وهذا خطأ، فساعة الحساب الكبرى قادمة، وإنما الموت برزخ لها[١٣١] مصداقًا لقول الله تعالى: {.. وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [١٣٢] والبرزخ هو ما بين الموت والبعث يوم القيامة.

– وفي غزوة حنين، كان الرسول ﷺ ثابتًا، ونقرأ ما يرويه البراء عندما سأله رجل من قيس: أفررتم مع رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال [البراء]: لكنّ الرسول ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاُستقبلنا بالسهام. ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان آخذ بزمامها، وهو يقول: أنا النبي لا كذب " وفي رواية: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب" [١٣٣]. الموقف هنا موقف شدة وأزمة، فالمسلمون في غزوة حنين انكشفوا، وهاجمهم الكفار بضراوة، ففروا تاركين الغنائم التي ألهتهم عن القتال، وكان موقف الرسول أن ذكّرهم بنفسه وبأصله فهو النبي الذي لا كذب في دعوته، وهو ابن عبد المطلب ذي النسب العريق، وأتبع هذه الكلمات ثباتًا ورسوخًا على ناقته في المعركة، لم يفر كما فرّ المسلمون، وسرعان ما عاد المسلمون؛ لثبات نبيهم وقائدهم، وقاتلوا وانتصروا. إنه تصرف بكل جوارحه، لم يخطب فيهم، ولم يهتف بهم، بل قال كلمات قليلة، وكان الفعل هو سيد الموقف.

---

١٣٠) القيامة الصغرى، د. عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٩٨٦م، ص١١.
١٣١) السابق، ص١٢.
١٣٢) سورة المؤمنون، الآية (١٠٠).
١٣٣) صحيح البخاري، ج٣، ص١٥٤، ١٥٥، رقم ٤٣١٧، ورقم ٤٣١٥، كتاب المغازي.

وقد يغني الفعل عن القول تمامًا، فيكون هو الجواب، كما في هذا الحديث:

– قال أبو هريرة ﷺ: "أُتِيَ رسول الله ﷺ ليلة أُسريَ به بإيلياء [بيت المقدس] بقدحين من خمر ولبن فأخذ اللبن. قال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك" (١٣٤)

لم يكن هناك سؤال من جبريل عليه السلام، بقدر ما هو اختيار من شيئين، والاختيار له مغزى، وجاء التعقيب من جبريل قولاً مؤكِّدًا المعنى المراد، واللبن غذاء أساسي للإنسان منذ الولادة وإلى الوفاة، وهذا كناية على أن الإسلام هو العقيدة الأساسية للبشر جميعًا، لا غنى عنها. وقد شرب الرسول ﷺ اللبن(١٣٥)، وهو أكثر المشروبات شيوعًا في بيئة الرسول، بحكم أنها بيئة رعوية، وهو أكثر المشروبات شيوعًا في العالم أجمع. وأيضًا البياض هو لون اللبن، وهو أحبُّ الألوان إلى رسول الله ﷺ وكان يقول: "هي خير من ثيابكم فالبسوها وكفّنوا فيها موتاكم(١٣٦).

١٣٤) صحيح البخاري، ج٣، ص٢٥٠، رقم ٤٧٠٩، كتاب التفسير.
١٣٥ زاد المعاد في هدي خير العباد، م س، ج١، ص٥٤.
١٣٦) المصدر السابق، ج١، ص٥١.

obeikan.com

المبحث الثاني

الاستفهام

الاستفهام من الفهم، وفهمت الشيء عقلتُه، واستفهم أي: سأله أن يفهمه[١٣٧] ومفهوم الاستفهام بلاغيًا هو: طلب الحصول على شيء في الذهن بأدوات مخصوصة[١٣٨]. فالاستفهام يستدعي أن يطرح الفرد سؤالاً، يتعرف به عما غمض عنه، وهو ما يسمى الاستفهام الحقيقي، أما الاستفهام البلاغي فهو يتجاوز إطار السؤال والجواب إلى إفادة دلالات أخرى[١٣٩] تتصل بالموقف الحواري.

تتشكل بنية الاستفهام من علاقة نحوية، تجمع بين أطراف الأسلوب، أي بين السؤال والجواب، فالجواب يتضمن عادة نواة الإخبار المتصلة بالسؤال[١٤٠]، فإذا سألنا عن شخص، تشمل الإجابة ذكر هذا الشخص، وبعض الكلمات من السؤال أيضًا، فذكر الشخص هو النواة الإخبارية، وإن كانت تستخدم في شكل جمل مستقلة، يمكنها أن تنفصل عن السؤال.

والاستفهام – بوصفه أسلوبًا حواريًا – يستدعي أطرافًا عدة، وهي: الملفوظ ومعناه، والمتكلم والسامع[١٤١]، وهذا جانب شكلي، فلا استفهام دون وجود ألفاظ، ولا ألفاظ دون متكلم، والمتكلم المستفهِم يستلزم وجود سامع.

وبالنظر إلى أحاديث المصطفى ﷺ لا نجد نصًّا به استفهام دون وجود مستمع أو مستمعين للرسول، وأحيانًا نجد أكثر من إجابة من الرسول ﷺ عن سؤال واحد، وهذا حسب الموقف، وحسب طبيعة من يحاورهم الرسول ﷺ. وبالنظر

---

١٣٧) المعجم المفصل في علوم البلاغة، د. إنعام نوار عكاوي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص١٢٢.

١٣٨) البلاغة الاصطلاحية، د. عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، دون طبعة، ١٩٨٩م، ص١٦٣.

١٣٩) من هذه الأغراض : التعجب والنفي والإنكار والتقرير والاستبعاد والتشويق والوعيد والتحقير والنهي... إلخ، انظر المرجع السابق، ص١٧١ – ص١٧٩، ويعلق بقوله : " الأغراض غير متناهية بل متجددة...، والمثال الواحد يؤدي إلى غرضين أو ثلاثة" ص١٨٠

١٤٠) بنية الجملة العربية بين النظرية والتطبيق، المنصف عاشور، سلسلة اللسانيات، منشورات كلية الآداب (منوبة)، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص٢٠٦.

١٤١) السابق، ص٢٠٥.

إلى الأحاديث التي اشتملت على بنية الاستفهام، نجد أن الرسول ﷺ يكون في أحد موقعين؛ إمَّا سائلاً أو مسؤولاً؛ وهذا دال على طبيعة الحوار الذي كان ينتهجه المبعوث رحمة للعالمين مع الناس، فهو ليس في موضع السائل أو المسؤول دائمًا، وإنما في حالة حوارية مستمرة، حول ما يعنُّ لهم من قضايا وأمور.

وسيتم دراسة بنية الأسلوب الاستفهامي في أحاديث الرسول عبر هذين الموقعين.

أولاً: عندما يُسأَل النبي ﷺ:

حيث يكون الرسول ﷺ في موقع الطرف الذي يجيب عن أسئلة الناس، في مختلف الأمور الحياتية، من منظور شريعة الإسلام. وهذا طبيعي، فالرسول داع للخير والهدى، وهو مبعوث من الله تعالى إلى الناس، وفي الحياة الكثير من الأمور والمستجدات التي تتطلب إجابات من المنظور الشرعي، كي تصبغ الحياة بصبغة الإسلام. بناء على ذلك، فإن بنية الاستفهام ودلالاته في هذا الموقع ستقتصر على الاستفهام الحقيقي الذي يتطلب المعلومة والحُكم الشرعي، لأن المقام هنا مقام تعليم وإرشاد وإخبار، بيد أن إجابات الرسول ﷺ جمعت بلاغة رائعة، وتبيان الحكم الشرعي، ويتخذ هذا الموقع أشكالاً عدة:

أ) السؤال المباشر إلى الرسول:

ويعني أن يكون هناك استفسار موجه بشكل مباشر إلى الرسول ﷺ للاستفتاء حول أمر من الأمور.

– عن أبي هريرة ﷺ قال: "قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدّق وأنت صحيح حريص، تأمل الغنى، وتخشى الفقر، ولا تُمْهِل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان" [١٤٢].

١٤٢) صحيح البخاري، ج٢، ص٢٨٩، رقم ٢٧٤٨، كتاب الوصايا.

السؤال من الرجل بسيط، يريد أن يتعرف متى تكون الصدقة أفضل قبولاً عند الله تعالى، وفي أي أحوال الإنسان. فجاءت إجابة الرسول ﷺ تحمل منظورًا فلسفيًا إنسانيًا عاليًا، فالصدقة الحقيقية تعتمد على نية الفرد، وليست بكثرة ما يتصدق به الفرد، وكلما كانت الصدقة في وقت الغنى، حين تكون النفس شحيحة، حريصة على اكتناز المال، ولها في الحياة آمال، فإنها تكون أفضل. وهذا الرد يتضمن تربية الرسول ﷺ للنفس المؤمنة، حين تتناسى في زحام الحياة وأيام الصحة والشباب والغنى، آلام الفقير ولا تتذكر أهمية الصدقة إلا وقت غرغرة الروح. والصدقة وقت الغنى والصحة واتساع الأمل تعني فيما تعني؛ الشكر لله تعالى، لا معنى التجارة والنفعية مع الله في وقت المرض، وعند اقتراب الموت. في ختام جواب الرسول ﷺ للسائل، تصوير موقف الرجل، على فراش الموت، وهو مدرك أنه مقبل على لقاء الله، بتعبيرات أقرب للتمثيل القولي، فيوزع صدقاته على فلان، وفلان.

– وعن أسماء رضي الله عنها ، قالت: "قلتُ يا رسول الله، مالي مالٌ إلا ما أدخل عليّ الزبير [زوجها]، فأتصدّق ؟ قال: تصدقي، ولا توعي، فيوعى عليكِ" [١٤٣]. أي لا تحبسي المال، كما يُحبَس في الوعاء، فيحبس الله عنكم فضله.. جاء تساؤل السيدة أسماء رضي الله عنها "فأتصدق؟" متضمنًا الحذف والمقصود: "فأتصدق من مال زوجي؟"، وهو حذف مفهوم من السياق، فلا مال لديها إلا ما يعطيها زوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه فتكون إجابة الرسول بالأمر بالصدقة، علمًا أن السؤال استفهام بالهمزة، والجواب المتوقع: نعم أو لا، ولكن الجواب جاء فعل الأمر "تصدقي"، ثم التحذير من مغبة حبس المال / مال الزوج، فستكون العاقبة عليها (فيوعى عليكِ)، أي يمسك الله عنها فضله. في جواب المصطفى أمر فقهي، بجواز أن تتصدق المرأة من مال زوجها دون علمه، ما دام نزرًا يسيرًا، حسبما جرى به العُرف[١٤٤]، فهو

١٤٣) صحيح البخاري، ج٢، ص٢٣٤، رقم ٢٥٩٠، كتاب الهبة.

١٤٤) فقه السنة، الشيخ سيد سابق، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ج١، ص٣١٨. وفي رواية أخرى (عن أحمد ومسلم) سألت السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها النبي فقالت: "إن الزبير (زوجها) رجل شديد،

رزق مشترك بين الزوج والزوجة، والمسؤولية تقع هنا على الزوجة، فهي المعنية بتدبير أمر المعيش والإنفاق أكثر من الزوج، وفي الجواب أيضًا، فهم لطبيعة المرأة بشكلٍ عام، ورغبتها في كنز المال، فيكون الحض على مقاومة هذا الشح، بالصدقة سواء علم الزوج أو لم يعلم، فمردوده خيرٌ على الأسرة كلها.

– عن أبي هريرة ﷺ، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك(١٤٥)

تتابعت استفسارات السائل حول الأحق بحسن الصحبة، والمعاملة الحسنة، فأكَّد الرسول ﷺ على الأم ثلاث مرات، ثم الأب، وهذا بالطبع ليس تقليلاً لدور الأب، وإنما تأكيد على دور الأب ومكانتها في مجتمع كان ينظر للمرأة نظرة أقل، ويخشى الأب وسطوته، فجاءت الإجابات موجزة، متتابعة، مؤكدة على المفهوم السابق في احترام الأم وتوقيرها مثل الأب (١٤٦).

ويبدو السؤال بالمستوى الحقيقي المباشر، المتطلب للمعلومة في أحاديث العبادات، حيث تكون الحاجة ملحة للفتوى الدينية.

– عن عبد الله بن عباس ﷺ، قال: " كان الفضل رديف النبي ﷺ، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: إن فريضة الله أدركت أبي شيخاً كبيرًا، لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم. وذلك في حجة الوداع"(١٤٧).

الموقف لا يستدعي أكثر من الجواب بكلمة، فالرسول ﷺ على الراحلة متحركًا، ويظهر أن السائلة متشككة في الأمر، فهي تريد جوابًا حاسمًا، وقد جاءها

ويأتيني المسكين فأتصدق عليه من بيته بغير إذنه، فقال رسول الله ﷺ: "ارضخي (أعطي القليل) ولا توعي فيوعي الله عليكِ".

١٤٥) صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وشرح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م، كتاب البر، والصلة والآداب،رقم ٢٥٤٨.

١٤٦) في رواية أخرى عن أبي هريرة. قال. قال رجل : يا رسول الله، من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك " ص١٩٧٤.

١٤٧) صحيح البخاري، ج٢، ص١٨، رقم ١٨٥٥، كتاب جزاء الصيد.

بالإيجاب. السؤال الموجه للرسول ﷺ مبدوء بالهمزة، والهمزة تحتمل في دلالة السؤال عدة وجوه[١٤٨]، وهي هنا استفهام عن التصور، عندما يكون التردد بين شيئين.

– عن عائشة رضي الله عنها: "قلتُ يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منكِ بابًا" [١٤٩].

جاءت إجابة الرسول ﷺ دقيقة، متفهمة مشاعر الناس، فكلما اقترب الفرد مكانيًّا من آخر، ازدادت رغبته في التعرف عليه، وعلى أخباره، حتى لو كان في نفسه شيء إزاءه؛ والهدية من وسائل تحبيب الناس في الخير، لذا جاء الجواب الموجز حافزًا على الأقرب في المكان، لتسهل دعوة القريب إلى الخير، وينزع من قلبه أي علامات للضعف النفسي.

ب) الرسول حافز على السؤال:

ويعني أن يقدّم الرسول ﷺ عبارة أو كلمات، تكون غامضة نوعا مًا، أو تحتاج إلى مزيد من التوضيح أو إكمال المعنى، مما يرّغب السامع في طرح السؤال.

– عن أبي قتادة ربعي الأنصاري رضي الله عنه، أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال: مستريح ومستراح منه. قالوا: يا رسول الله، ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله عز وجلّ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب" [١٥٠].

---

١٤٨) يتطلب السؤال بالهمزة أحد أمرين : التصور أو التصديق، والتصور هو إدراك المفرد، أي إدراك عدم وقوع النسبة في حدود موضوع معين، وتلك النسبة هي موضع الإيجاب أو السلب في الجواب، فهو يكون عند التردد في يقين أحد الشيئين، أما الاستفهام عن التصديق فيكون من نسبة تردد الذهن فيها، بين الثبوت والنفي. راجع : جواهر البلاغة في المعاني والبديع، السيد أحمد الهامشي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٦، دون تاريخ، ص٧٠.

١٤٩) صحيح البخاري، ج٢، ص٢٣٥، رقم ٢٥٩٥، كتاب الهبة.

١٥٠) صحيح البخاري، ج٤، كتاب الرقاق، ص١٩٣.

فالرسول ﷺ يفجِّر قضية من خلال تعليق حول موقف معين، أو حادثة معينة، وهنا تمرُّ جنازة بالنبي ﷺ، فيطلق الرسول ﷺ تعقيبًا على المشهد، والتعقيب جاء غامضًا، وعلى صيغة عمومية، تستدعي أن يتساءل من حول الرسول ﷺ حول: مَن المستريح ومَن المستراح؟ وهنا يجعل الرسول ﷺ من الجنازة -وهو موقف حياتي دائم التكرار- يجعله سبيلاً إلى مفهوم شامل للنفس البشرية، فهي على شقين متقابلين: إمَّا عبد مؤمن، أو فاجر عاص فاسق. والدنيا بما فيها من مخلوقات على شقين وهذان الشقان متقابلان، لكن تقابلا حسب العبد المتوفى، فالمؤمن مستريح من تعب الدنيا وأذى العباد، إذن الدنيا كانت همًّا على النفس المؤمنة التواقة للقاء الله والفوز برحماته، وهي -الدنيا- تضيق بالفاجر الذي يتعامل مع من فيها بإيذاء، وقد حصر الرسول الإيذاء: فإمَّا أن يكون بشريًّا (العباد)، أو مكانيًّا (البلاد)، أو نباتيًّا (الشجر) أو لسائر المخلوقات (الدواب) وهذا ينطبق على الفاجر الفاسد في الأرض، فينال لعنة كلٌ مما سبق حسبما يؤذيه. هذه المقابلة التي نراها في ثنايا مضمون الحديث هي نصح غير مباشر للسامعين بأن يكونوا من الفريق الأول: المستريح من عناء الدنيا. وهذا متسق مع حادثة مرور الجنازة، ومطالعة الناس لها، وسعي الرسول ﷺ إلى أن تكون نظرة الناس على سبيل الموعظة والدرس، وليست مجرد نظرة لا جديد فيها.

- عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده، كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نُزلاً لأهل الجنة. فأتى رجل من اليهود، فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنُزل أهل الجنة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خبزة واحدة -كما قال النبي ﷺ- . فنظر النبي ﷺ ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالام ونون. قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا" (١٥١).

١٥١) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٥، رقم ٦٥٢٠، كتاب الرقاق.

في الحديث السابق، يتحدث الرسول ﷺ عن بعض مشاهد يوم القيامة، حيث تكون الأرض مثل خبزة واحدة، يتكفؤها الله تعالى أي يميلها كما يشاء، مثلما يميل المرتحل وهو يسوي خبزه، حيث يقلبه بيده، وهكذا يعد المولى تبارك وتعالى مساكن أهل الجنة، وهذا دال على عظمة الخالق، وجبروته وعزته. وهنا نجد تقاطعًا في الحوار، حيث يتداخل (يهودي) في الحوار بطرح سؤال عن نزل أهل الجنة، ولا نعلم أكان يستمع للرسول ﷺ أم جاء في حينه، وأراد أن يخبر بها المسلمين، بدليل أنه كرَّر المقولة نفسها ومن ثم ضحك الرسول ﷺ، فهذا تأييد لكلامه المتقدم، والتأييد جاء من كتابيّ، وهو أيضًا دليل على القواسم المشتركة بين الإسلام واليهودية رغم التحريف الذي أصابها. ونجد أن السؤال من الرسول حول طعام أهل الجنة، وقد ذكر أن هذا الطعام "بالام ونون" والبالام هو الثور في اللغة العبرانية [١٥٢] أما النون فهو الحوت، والشاهد هنا أن هذا طعام أهل الجنة، وهو من خيرة الطعام.

يقول ابن حجر: "فقوله (يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً) قال عياض زيادة الكبد وزائدتها هي القطعة المنفردة المتعلقة بها وهي أطيبه ولهذا خص بأكلها السبعون ألفاً ولعلهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب فضلوا بأطيب النزل ويحتمل أن يكون عبـــَّر بالسبعين عن العدد الكثير ولم يرد الحصر فيها... وأن أول طعام يأكله أهل الجنة له زيادة كبد الحوت وغذاؤهم على أثرها أن ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها" وفيه "وشرابهم عليه من عين تسمى سلسبيلا" وأخرج ابن المبارك في "الزهد" بسند حسن عن كعب الأحبار: أن الله تعالى يقول لأهل الجنة إذا دخلوها: إن لكل ضيف جزورا وإني أجزركم اليوم حوتًا وثورًا، فيجزر لأهل الجنة" [١٥٣].

١٥٢) جزم بذلك النووي، راجع : فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب كيفية الحشر.
١٥٣) " فتح الباري شرح صحيح البخاري "،م س، باب كيفية الحشر.

– عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه. قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، فلم يدخل الجنة" (١٥٤).

فتعبير "رغم أنفه" المكرَّر، يشكِّل غموضًا لدى السامع، وقد كرَّره المصطفى ﷺ متعمدًا، حافزًا لمستمعيه على السؤال، وقد جاءت الإجابة مؤكدة على خدمة الوالدين وطاعتهما وتقديرهما، فمن نال رضاهما، نال الجنة.

– عن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: تُحشرون حفاة عراة غرلا. قالت عائشة: فقلت يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: الأمر أشد من أن يهمهم ذاك"(١٥٥).

فهيئة الناس يوم القيامة كما ولدتهم أمهاتهم، حفاة دون ما أحذية، عراة دون ثياب، غرلا: وهي جمع أغرل، وهو الذي لم يقطع الخاتن جلدة عورته(١٥٦)، حيث سيرد الله تعالى ما قطع من جسده، ليلقى العبد ربه في الحشر كما خلقه. تتوقف السيدة عائشة متسائلة بحياء الأنثى، بطرح جملة خبرية بصيغة السؤال الاستفهامي، أو على تقدير أداة استفهام محذوفة، وقد جاء رد الرسول ﷺ بأن الأمر يتجاوز المفهوم البشري للعري بين الرجال والنساء، فالناس جميعًا مهمومون بما هو قادم من حشر وحساب وجنة أو نار.

– عن ثوبان، مولى رسول الله ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قال: "من عاد مريضًا، لم يزل في خُرْفَة الجنة. قيل: يا رسول الله، وما خرفة الجنة؟ قال: جناها" (١٥٧).

في التأكيد على ثواب عيادة المريض فإنَّ زائر المريض ينال خرفة الجنة، والخرفة: اسم ما يخترف من النخل حتى يدرك(١٥٨)، وهنا نجد أن الرسول ﷺ

١٥٤) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٥١.
١٥٥) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٦، رقم ٦٥٢٧، كتاب الرقاق.
١٥٦) المصدر السابق، شرح المحقق في الهامش، ص١٩٥.
١٥٧) صحيح مسلم، كتاب البر، باب فضل عيادة المريض، رقم (٢٥٦٨).
١٥٨) شرح المحقق بالهامش.

استعمل لفظ "خرفة" وهو مأخوذ من واقع البيئة المعيشة، ساعيًا إلى تقريب ثمار الجنة ونعيمها من الأذهان، وساق اللفظة، متوقعًا الاستفهام، وقد حدث بالفعل، ليعلم السامع المزيد عن خرفة الجنة وجناها. ونلحظ دقة استعمال المصطفى في استخدام الفعل "لم يزل"، بصيغة المضارعة، وكأن زائر المريض موصول الأجر في الدنيا والآخرة في آنٍ، ترغيبًا وتحبيبًا في الفعل.

ج) الرسول يجيب بسؤال:

ويعني أن يرد الرسول ﷺ على من يسائله بسؤال آخر، ودفعًا لمزيد من تفكّر السائل، وتمعنه في الجواب.

– عن قتادة عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً قال: يا نبي الله كيف يُحشر الكافر على وجهه؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟"[١٥٩]

توقف السائل عند كيفية حشر الكفار يوم القيامة على وجوههم، مصداقًا للآية الكريمة: { **الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً**}[١٦٠]. فكيف يقف ويسير المرء على وجهه يوم القيامة؟ إنه سؤال بالمقياس البشري للأمور والأحداث، وقد جاء الهدي النبوي موضِّحًا أن الله تعالى الذي أمشى الكافر على رجليه في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة، وقد تشكلت الإجابة بشكل السؤال الاستفهامي الذي يستدعي الإجابة بـــ"بلى" [١٦١]، ولكن النص ظلَّ دون جواب لأنه جواب متوقع من كل مؤمن. وسؤال الرسول ﷺ ذاته يستدعي أن يتفكر المؤمن في قدرة الله تعالى التي لا يحدها شيء، وأن يترك التصورات البشرية، فالله تعالى خالق الكون كله، يفعل ما يشاء.

---

١٥٩) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٥، رقم ٦٥٢٣، كتاب الرقاق.
١٦٠) سورة الفرقان، الآية (٣٤)
١٦١) وقد أجاب قتادة الراوي عن أنس بـ"بلى" بعد انتهاء متن الحديث النبوي.

– عن عبد الله بن عمرو (بن العاص)، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد(١٦٢).

جاء تساؤل الرسول لسائله عن طبيعة ظروفه العائلية، والرسول أدرى بأفراد المجتمع من حوله، فجاء تساؤله إمعاناً في التعرف على أسرة الرجل قبل أن يأذن له، فلما علم أنهما على قيد الحياة، طلب منه أن يعود لخدمتهما، فهذا بمنزلة الجهاد، وينال المرء ثواب المجاهد إذا خدم والديه.

– عن ابن عباس رضي الله عنهما "أن امرأة من جهينة، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أُمِّي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها؛ أرأيتِ لو كان على أمك دَينٌ، أكنتِ قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء"(١٦٣).

هنا نرى الإجابة جمعت الرأي الشرعي ثم الدليل العقلي على صحة هذا الرأي، فقد أذَّن الرسول ﷺ للمرأة أن تحج عن أمها، بصيغة واحدة مباشرة، ثم أعطاها إقناعًا عقليًا؛ ماذا لو كان على أمها دين لآخرين؟ ولم يمهل الرسول ﷺ السائلة أن ترد، فالجواب بالإيجاب معروف، ومن ثم استطرد النبي ﷺ، مشدِّدًا على قضاء الفريضة فهي دين الله على عبدته، والله أحق بتسديد الدين من الابنة. وفي الحديث –فقهيًا– وجوب الحج عن الميت سواء أوصى أو لم يوصِ لأنّ الدين يجب قضاؤه مطلقًا(١٦٤).

ويجدر بالذكر أن الرسول ﷺ يعرف شخصيات الكثير ممن حوله من الصحابة والصحابيات، ويدرك بثاقب نظره طبيعة الشخصية، أهي تكتفي بإجابة واحدة مقتضبة أم تحتاج إلى المزيد من التوضيح والدليل.

وقد يكون السؤال بصيغة شرطية في بنائها.

---

١٦٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٤٩ .

١٦٣) صحيح البخاري، ج٢، كتاب جزاء الصيد، ص ١٧، ١٨ رقم ١٨٥٢.

١٦٤) فقه السنة، م س، ج١، ص٤٦٨. والظاهر أن الحج يقدم على دين الآدمي، إذا كانت التركة لاتتسع للحج والدّين، لقوله ﷺ: "فالله أحقُّ بالوفاء"، وقال مالك: إنما يحج عنه إذا أوصى.

– عن أبي بكر ﷺ قال: "قلتُ للنبي ﷺ وأنا في الغار، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟!" (١٦٥).

كانت عبارة الصديق ﷺ مجرد هاجس في النفس، أو سؤال فيه حياء، فهو يصاحب الرسول ﷺ في الهجرة، وهما الآن مختبئان في غار ثور، فمشركو مكة يجدّون في طلبهما، ولكن الرسول يعلق على الهاجس بسؤال، يزيد صاحبه الصديق إيماناً وهُدى، ففي هذا الموقف لا سبيل إلى اللجوء إلى الله تعالى، فكيف لمن كان الله ثالثهما أن يخافا؟! إنه الردُّ المفعم بالتوكل الكامل، واستحضار الذات الإلهية في ساعة المحنة.

– عن عائشة ﷺ قالت: قدم ناسٌ من الأعراب على النبي ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. فقالوا: ولكنّا والله! ما نقبّلُ. فقال النبي ﷺ: "وأمْلِكُ أن كان الله قد نزع منكم الرحمة؟" (١٦٦).

السؤال الختامي في الحديث: وأمْلِكُ أن كان الله قد نزع منكم الرحمة؟، تقديره: هل يمكن أن أجعل الرحمة في قلوبكم بعد أن نزعها الله منها؟ ذلك أن تقبيل الصبي (يشمل الأطفال والأبناء في مختلف الأعمار)، فالنبي يواجه سلوكاً معتادًا من قبل بعض الجُفاة من الأعراب وهم يتعاملون مع أبنائهم، والتقبيل علامة على الرحمة، فمن انتزعت من قلبه الرحمة بات شديد القسوة، وهذا سلوك غير إسلامي. وقد اكتفى الرسول بإدانة هذا السلوك بجملة خبرية الصياغة، استفهامية الطرح والنبرة، دون جواب، لأنها استنكار وشجب ورفض.

١٦٥) صحيح البخاري، ج٣، كتاب مناقب الأنصار، ص٣٧، رقم ٣٦٥٣.

١٦٦) سنن ابن ماجه، الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي، نشر : عيسى البابي الحلبي، القاهرة دون طبعة، دون تاريخ، الجزء الثاني، كتاب الأدب، رقم ٣٦٦٥.

ثانيًا: عندما يَسْأَلُ النبي ﷺ:

وهذا هو الشقُّ الثاني في الحوار الاستفهامي: بأن يكون الرسول سائلاً مستفهمًا، وتشمل تساؤلاته الاستفهام الحقيقي والاستفهام البلاغي بدلالاته المختلفة، وهو ﷺ هنا يمارس دورًا تربويًا يتجاوز به الإطار التقليدي للعالم الأستاذ، إلى دور المُرَبِّي والمرشد والداعية، فهي دعوة ورسالة سامية تعنى بتثقيف العقول وتهذيب النفوس وإرشاد السلوك. وقد تقدَّم الشق الأول: بأن يكون الرسول ﷺ مسؤولاً من أصحابه خاصة ومن الناس عامة، فهذا يتسق مع كونه الرسول والمعلم والقائد والـــهادي، وهذا هو الشق الأول من آلية الحوارات في الهدي النبوي.

فمن أمثلة أسئلة الرسول ﷺ:

– عن كعب بن عجرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لعلّك آذاك هوامُّك؟ قال: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك بشاة" (١٦٧).

السؤال ناتج عن ملاحظة أثناء الحج، حيث كان يتطاير الهوام وهي الحشرات الطائرة التي تؤذي الرأس، وفي حلق الرأس شفاء وتطهير، وقد رأى الرسول ﷺ الرجل، ومنع الحياء الرجل أن يطلب الرخصة، فترفق الرسول ﷺ بالسؤال، وجاءه الرد بالإيجاب، فطلب منه الرسول ﷺ أن يحلق رأسه – وهذا مخالف للنسك – فهو يعني التحلل قبل الموعد المحدد، ثم يتقرب بذبح شاة أو صيام ستة أيام أو إطعام ستة مساكين. وقد جاء الجواب موجزًا على التخيير حسب ظروف الرجل المالية. والسؤال هنا جملة خبرية، ملقاة بطريقة الاستفهام دلالة على الرقة في الملاحظة.

ويأتي السؤال أشبه باللغز في دعوة للتفكير **والتنشيط الفكري**.

١٦٧) صحيح البخاري، ج٢، كتاب المحصر، ص٥، رقم ١٨١٤.

– عن ابن عمر ﷺ، قال رسول الله ﷺ: إن من الشجر شجرة، لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم. فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله بن عمر (راوي الحديث): ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت. ثم قالوا: ما هي يا رسول الله ؟ قال: هي النخلة" (١٦٨).

استهلَّ الرسول حديثه بإعطاء تشبيه عكسي، فبدأ بالمشبه به: الشجرة التي لا يسقط ورقها، وانتهى بالمشبه: المسلم. وقد جاءت الصياغة أشبه باللغز، مازجة بين الدعوة والطرفة، ثم كان السؤال: ما هي؟ ونرى في متن الحديث أحاسيس الراوي "عبد الله بن عمر" فالحياء منعه من التحدث، وكان قد علم الإجابة الصواب كما يظن. فلما عجز الناس عن ذكر اسم هذه الشجرة، سألوا الرسول، فأجابهم بأنها النخلة.

المسلم مثل النخلة، يظل عطاؤه مستمرًا، لا يعرف الكلل، ولا يحده فصل أو زمن، وإنما يكون خيره ممتدًا طيلة الوقت، وهذا نصح غير مباشر ألا ينقطع عطاء المسلم: سلوكًا وصدقاتٍ وعباداتٍ، طيلة عمره.

– قال رسول الله ﷺ: ما تعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: لا، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب" (١٦٩).

السؤال هنا يأتي ضمن منظومة تصحيح المفاهيم والتعبيرات التي يتداولها الناس، وهو ﷺ هنا يركِّز على أن الصُّرعة ليست قوة البدن التي يمتاز بها الفرد، ويصرع الرجال، وهذا مفهوم سائد بين الناس، يشابه مفهوم "الفتوة"، إلا أن الرسول يعيد صياغة المقصود به، من دلالة جسدية إلى دلالة معنوية، ليكون القدرة على امتلاك النفس عند الغضب، وهي أشد من مصارعة الرجال فالنفس التي بين أجنابنا عسيرة الانقياد، متقلبة الهوى.

– وفي صلح الحديبية، صلَّى الرسول ﷺ بالناس صلاة الصبح، على أثر سماء كانت من الليلة (أي ممطرة)، وقد تحدث الناس وخاضوا في سبب المطر.

---

١٦٨) صحيح البخاري، ج١، كتاب العلم، ص٤١، رقم ٦٧.
١٦٩) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٧٩.

فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمَّا من قال: مُطرِنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب؛ وأمَّا من قال: بنوء كذا وكذا وكذا، فذلك كافرٌ بي ومؤمنٌ بالكوكب"(١٧٠).

جاء السؤال من قبل الرسول ﷺ مرسِّخًا قيمة تعليمية تربوية إيمانية، تتصل بجوهر رسالة التوحيد، إنها قيمة الإيمان بالله تعالى، وأن الله مسبِّب المطر / الرزق، وعلى العبد أن يسبب الأمر كله لله تعالى، فهو خالق الأنواء والكواكب والريح والسحاب. لقد كان اختلاف الناس حول مظاهر الطقس المسببة للمطر، فأراد الرسول ﷺ أن يعطي الجواب الفصل، كيلا يظل النقاش دون ثمرة، وربط الثمرة بالإيمان والكفر.

– ويروي أبو ذر ﷺ إني سابتُ رجلاً (هو بلال مؤذن الرسول) فعيّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم، فأعينوهم"(١٧١).

جاء استفهام الرسول ﷺ: "أعيرته بأمه؟" استنكاريًا، فالحادثة وقعت، وهناك من شهد عليها، ولا مجال لغير ذلك، ووقعت بين صحابيين جليلين هما أبو ذر الغفاري وبلال بن رباحة، وقد واصل الرسول ﷺ حديثه، مطورًا الأمر من مجرد خطأ لفظي، إلى قاعدة عامة في التعامل مع الخدم والأتباع، علمًا أن بلالاً لم يكن خادمًا ولا عبدًا عند أبي ذر، ولكن هذا سلوك يشيع لدى بعض الناس، في سوء تعاملهم مع خدمهم وأتباعهم، فهم بشر، لهم رغبات في المطعم والمشرب والملبس والإعانة.

ويأتي الاستفهام للوقوف على الأمر **بشكل تفصيلي**.

---

١٧٠) صحيح البخاري، ج١، كتاب الآذان، ص٢٧٢، رقم ٨٤٦.
١٧١) صحيح البخاري، ج١، كتاب الإيمان، ص٢٦، رقم ٣٠.

– عن النعمان بن بشير ﷺ، قال: أعطاني أبي عطيةً، فقالت عمرة بنت رواحة (أم النعمان): لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ. فأتى رسول الله ﷺ، قال: إني أعطيتُ ابني من عمرة بنت رواحة عطيةً، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، فقال: أعطيتَ سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا. قال: فاتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم. قال: فرجع فردَّ عطيته" (١٧٢).

السؤال جاء للتأكد من التوزيع العادل للعطاء، فهل شمل الأب كل أولاده بعطايا مثل صغيره النعمان، فكان السؤال طلبًا للتوضيح والفهم، ومن ثم يكون الحكم من قبل الرسول ﷺ، فهو سؤال على حقيقي الاستفهام والدلالة، للتأكد من المعلومة قبل نطق الحكم. وجاء الحكم مرسِّخًا قيمة العدالة بين الأولاد، ولم يكن رد الرسول ﷺ خاصًا بوالد النعمان، بل جاء عامًا لكل المسلمين.

– عن جابر بن عبد الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب – أو أم المسيب –، فقال: مالك؟ يا أم السائب أو أم المسيب، تزفزفين؟ قالت: الحُمى، لا بارك الله فيها. فقال: لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد" (١٧٣).

جاء استفهام الرسول ﷺ عن حالة الصحابية الجليلة، وهي تعاني الحُمى، وقد رآها تزفزف (أي ترتعد بشدة)، والسؤال استفهام حقيقي للتعرف على سبب الارتعاد، فلما عرف أن الحمى هي السبب، مصحوبة بلعنة الحمى، حوّل المصطفى ﷺ القضية من كون الحمى سببًا للمعاناة الجسدية والألم، وهي دلالة سلبية للمرض كله، إلا أنها أصبحت ذات دلالة إيجابية للمؤمن، لأنها صارت وسيلة لتكفير الذنب، واستخدم الرسول ﷺ التشبيه الحركي "كما يذهب الكير خبث الحديد"، في إشارة إلى أن اشتداد سخونة الجسد يعني تكفير الذنب، وسخونة نار الحديد تشابه سخونة الجسد، مثلما تشابه خبث الحديد مع الذنوب. فقد جاء السؤال استفهامًا حقيقيًا، أتبعه بأمر مؤكد في الأحاديث النبوية، بأن أمر المسلم كله خير،

١٧٢) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الهبة، ص٢٣٣، رقم ٢٥٨٧.
١٧٣) صحيح مسلم، كتاب البر، فصل عيادة المريض، رقم (٤٥٧٥) .

إن أصابه خير شكر فكان خيرًا له، وإن أصابه شرٌّ صبر فكان خيرًا له، وكل ما يصيب المسلم من نصب أو مرض أو هم أو حزن، هو تكفير لذنوبه وخطاياه.

ومن ناحية أخرى، فإن الرسول ﷺ يقدم هنا نموذجا للداعية الملتحم مع من يدعوهم، إنه يحرص على "إظهار الشفقة والرحمة بمن يقوم بتربيتهم ودعوتهم" فالالتزام بالرفق والشفقة والرغبة في راحة من ندعوهم والتعامل معهم برفق وأدب، يساهم في جذب قلوبهم وإدامة الحمة بين لبنات المجتمع المسلم [١٧٤].

– عن أبي هريرة أن رسول ﷺ قال: أتدرون من المُفْلِس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: المُفْلِس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طُرِح في النار" [١٧٥].

جاء سؤال الرسول ﷺ حول لفظ "المُفْلِس" الشائع، وهو سهل، استدعى الإجابة سريعًا، من قبل السامعين، لأنه دال على مفهوم الإنسان الذي لا يملك شيئًا من متاع الدنيا، ولكن الرسول يعيد تصحيح المفـــهوم، فليس المفلس من وجهة نظر الإسلام هو من كان خالي الوفاض دنيويًا، وإنما من تطاول وظلم وضرب وآذى الناس، رغم أن لديه رصيدًا من الحسنات من طاعاته وعباداته، ولكنه رصيد يتبدد سريعًا يوم القيامة، بفعل سوء سلوكه مع الناس، فيأخذ كل ذي مظلمة حقه من حسنات الرجل، فأصبح مُفلِسا وتتراكم عليه سيئات من بقي دون أن يأخذ حسنات فيُطرَح المفلس في النار.

هذا الحديث يأتي ضمن منظومة الهدي النبوي، المعتمدة على تصحيح المفاهيم الدنيوية التي يعاني الناس منها، لتكون القضية الحياتية لهم هي الآخرة، والفوز برضا الله والجنة.

---

١٧٤) المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام، الجزء الأول، اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق الشريعة الإسلامية، الديوان الأميري بالكويت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص٢٠٧، ٢٠٨م.

١٧٥) صحيح مسلم،كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٨١، ص١٩٩٧.

لقد جاءت أسئلة الرسول ﷺ لمن حوله، تستهدف أمورًا عدة: التعرف على حقيقة الأمر، ترغيب السامع في المعرفة، اطلاع السامعين على الجديد في الدين.

إن السؤال من أبرز القيم التربوية التي تحفِّز العقل على التفكير، والرسول لا يلجأ لأسلوب تقديم المعلومة بشكل مباشر، بقدر ما يجعل المتلقي/ السامع له يفكِّر، ويفكِّر، ويقدِّم له المعلومة بطريقة مبسطة ذات بلاغة عالية، وكلمات موحية، والسؤال أعلى الطرق للنقاش وإثارة الذهن.

obeikan.com

المبحث الثالث

الحدث والتعليق

من أبرز الوسائل التربوية التي لجأ إليها الرسول ﷺ التعليق على الأحداث، وهو تعليق تعددت أنماطه، بتعدد المواقف والأحداث التي مرَّتْ أمام الرسول ﷺ، فلم يكن المصطفى يدع حدثًا يمكن أن يعطي معلومة دينية أو قيمة خلقية أو سلوكًا طيبًا أو إرشاد، إلا واستثمره في الدعوة إلى الخير.

ويختلف هذا المبحث مع المبحث السابق، في كونه يتخذ من الحادثة أو الموقف الدنيوي العارض سببًا في التوجيه النبوي، أما المبحث السابق، فإن الرسول ﷺ يتخذ السؤال أساسًا في تكوين حديثه سواء كان في تساؤل من حوله أو هو طارحٌ السؤال عليهم. نرى ذلك واضحًا في كتب الأحاديث الشريفة، حيث قلَّتْ الخُطب المطولة وكثرت الأحاديث قليلة الكلمات، وهذا ما يجعلنا نقف متأملين أمام تسمية "حديث" التي أُطلقتْ على النصوص الموثقة إلى الرسول ﷺ، وهو مصطلح غاية في الدقة، لأنه مشتق من طبيعة تشكيل النصوص، ذلك لأن الرسول ﷺ أنتج هذه النصوص من موقف المشافهة مع الآخرين، فهي كلام تحدث به، في حوار أو مساءلة أو حادث أو تعليق وغير ذلك. إذًا مصطلح حديث هو مصطلح عام، تندرج تحته كافة الأشكال والقوالب التي نراها في النصوص النبوية الشريفة، فهذا المصطلح شكل أدبي، مثلما هو مصدر للفقه والشريعة واللغة.

وهنا – في هذا المبحث – تكون الحادثة العارضة والموقف اليومي سببًا في تكوين الحديث الشريف.

أ) مراجعة النبي ﷺ :

ويتناول مراجعة من حوله ﷺ لموقف أو قول للرسول وهي مراجعة تشمل التحفظ أو الاعتراض على مقولة أو تصرف للرسول ﷺ.

– عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ رجلان. فكلماه بشيء لا أدري ما هو، فأغضباه، فلعنهما وسبهما، فلما خرجا، قلت: يا رسول الله، من أصاب من الخير شيئًا ما أصابه هذان. قال: وما ذاك؟ قالت: قلتُ: لعنتهما وسببتهما. قال: أو ما علمتِ ما شارطتُ عليه ربي؟ قلتُ: اللهمّ، إنما أنا بشر. فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاةً وأجرًا" (١٧٦).

جاء هذا الحديث في باب "من لعنه النبي أو سبَّه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة ورحمة"، فقد استغربت السيدة عائشة رضي الله عنها من غضب الرسول ولعنه لهذين الرجلين، فلما راجعت النبي ﷺ بانَ تواضعه الجم، وحُسن خُلقه، وخشيته أن يكون قد ظلم شخصًا ما، فجعل ما يصدر عنه زكاة وأجرًا للآخرين، مُقرًّا أنه بشر، مُعرَّض للخطأ، وهذا تأكيد على البُعد البشري في شخصية النبي ﷺ، وهو بُعدٌ أتاح للناس والصحابة من حول الرسول أن يراجعوه ويناقشوه، وهو يستمع.

وقد وردت أحاديث عدة في ذلك، منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه، يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: اللهم، إنما أنا بشر، يغضب كما يغضب البشر. وإني قد اتخذت عهدًا لن تخلفنيه، فأيما مؤمن آذيته ــ أو سببته، أو جلدته، فاجعلها له كفارة، وقربة، تقربه بها إليك يوم القيامة" (١٧٧).

– عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فقال: ائذنوا له، فلبئس ابن العشيرة، أو بئس رجل العشيرة. فلما دخل عليه ألان له القول. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، قلتَ الذي قلت، ثم ألنتَ له القول؟! قال: يا عائشة إنَّ شرَّ الناس منزلةً يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه"(١٧٨).

---

١٧٦) صحيح مسلم،كتاب البر والصلة، رقم ٢٦٠٠.
١٧٧) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، رقم ٢٦٠١.
١٧٨) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، رقم ٢٥٩١.

جاء تساؤل السيدة عائشة ﷺ في محله، فقد رأت موقفاً متناقضًا في ظاهره من قبل المصطفى ﷺ، يذم رجلاً ثم يتهلل في استقباله، فجاءت إجابة الرسول حكيمة، إنه يدين الرجل الذي يخشاه الناس ويتحاشونه خوفا من فساد خلقه، وفحشه الشديد. فقد ذمه الرسول ﷺ بعبارة عامة "فلبئس ابن العشيرة"، ثم أوضح كيف يكون سلوك الفاسد البذيء؛ مدعاة لهجر الناس له.

ب) التعليق على شكوى:

وتتصل بكثير من الشكاوى الحياتية، المتعلقة بسلوكيات الناس مع بعضهم.

– عن أبي هريرة ﷺ، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة، أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ. فقال ﷺ: لئن كنتَ كما قلتَ، فكأنما تسفّهمُ المَلّ. ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك" (١٧٩).

إنها شكوى مؤلمة بشكل كبير، لرجل في قلبه الخير والحب والعطاء لقرابته، ويقابلونه بالإساءة والتنكر والقطيعة. وقد جاءت إجابة الرسول ﷺ موضحة ثواب فاعل ذلك، وعقوبة من يسيئون إليه، فالعقوبة أنهم يسفون المَلَ، أي يتناولون رغمًا عنهم الرماد الحار، كأنهم يطعمونه في جهنم، أما هو فينال معونة الله له، وأن يكون الله هو مدافعه لأذاهم، وهذا يتوقف على تحمله لما يفعلون، واستمراره في هذا الخير.

نلاحظ أن رد الرسول ﷺ فيه حثٌّ على عدم القطيعة، والتواصل، وتحمل الأذى، ولو كانت المعاملة بالمثل لكانت القطيعة بين الناس عظيمة.

– عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ وَرَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا غَلَبَنِي عَلَى أَرْضٍ لِي . فَقَالَ الْكِنْدِيُّ: هِيَ أَرْضِي وَفِي يَدِي لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَقٌّ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ

١٧٩) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٥٧.

لِلْحَضْرَمِيِّ: "أَلَكَ بَيِّنَةٌ". قَالَ لاَ. قَالَ "فَلَكَ يَمِينُهُ". قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ فَاجِرٌ لاَ يُبَالِي عَلَى مَا حَلَفَ عَلَيْهِ وَلَيْسَ يَتَوَرَّعُ مِنْ شَيْءٍ. قَالَ "لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلاَّ ذَلِكَ". قَالَ فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ لِيَحْلِفَ لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَدْبَرَ "لَئِنْ حَلَفَ عَلَى مَالِكَ لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا لَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ" (١٨٠).

الشكوى هنا واضحة: نزاع بين رجلين على قطعة أرض، الرجل المدعي (الحضرمي) يقول إنها أرضه، وأن الرجل الثاني (الكندي) يضع يده عليها دون حق. فردَّ الكندي (المدعى عليه): إنها أرضه وهو يضع يده عليها. فلما سأله الرسول ﷺ عن دليل يثبت ملكيته، قال: لا يمتلك. فطلب منه الرسول أن يحلف(١٨١). فردَّ المدعي: أن الفاجر لا يهتم أن يحلف كذبًا أو صدقًا. فيرد الرسول أنه لا يملك عليه إلا ذلك.

الدرس المستفاد من هذه الشكوى: أن التقاضي يكون بين الناس سلميًا، ولابد من القبول بحكم القاضي، وهنا كان القاضي الرسول ﷺ، وقد أراد أن يثبت أن المسألة ليست قضية صراع على الدنيا، وعلى قطعة أرض، فهذا عند الله، ويوم القيامة لا قيمة له، فإن الله يعرض عنه، كناية عن غضب الله عليه، وسخطه على من يأكل أموال الناس بالباطل والحلف الكاذب. فقد أعاد الرسول ﷺ القضية إلى لُبِّها: أن يكون رضا الله هو الهدف، وعلى كل امرئ أن يراجع نفسه في أي مال غلول.

وفي نفس هذه الحالة، يروي الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: شاهداك أو يمينه. فقال: إنه يحلف ولا يبالي، فقال: من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان" (١٨٢). لقد كانت شكوى الأشعث: الحلف دون مبالاة، اليمين الكاذب، مثل الرجل الذي ينفق سلعته بأيمان كاذبة. إنها قضية عامة، تتجاوز

---

١٨٠) سنن الترمذي، كتاب الأحكام، رقم ١٣٩٠، حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٨١) إذا عجز المدعي بحق على أخر عن تقديم البينة وأنكر المدعى عليه هذا الحق، فليس له إلا يمين المدعى عليه، وهذا خاص بالأموال والعروض. فقه السنة، م س، ج٣، ص٢٤٣.

١٨٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، راجع فقه السنة، ص٢٤٣.

النزاع حول أرض أو بئر، إلى نفوس لا تقيم قداسة ولا إيمانا لمن يحلفون به، وهو المولى تبارك وتعالى.

كلا الحديثين يشيران إلى طبيعة المجتمع المسلم أيام الرسولﷺ فقد وجدت أشكال مختلفة من النزاعات بين البشر: حول أرض وبئر ومال وأيمان كاذبة وغير ذلك، ولكن هناك تطور كبير في نفوس المسلمين، إنها تقبل التقاضي السلمي وفقًا لما جاءت به أحكام الشريعة الإسلامية، والرسول ينفذ هذه الأحكام، ملتزمًا بنصوصها، دون أن يغوص في أعماق النفوس: أكاذبة هي أم صادقة؟ لقد تحوّل المسلمون من مجتمع قبائلي يحتكمون فيه إلى السيف والعصبية القبلية، إلى التحاور والاحتكام إلى القاضي.

ج) التعليق على تصرف سلوكي:

فكثيرة هي المواقف التي تصادف الناس في تصرفاتهم اليومية، وتحتاج إلى هدي وإرشاد من قبل الرسول ﷺ، وهو هدي عملي مباشر، في محله.

– ركبت عائشة رضي الله عنها بعيرًا، فكانت فيه صعوبة، فجعلت تردد. فقال لها رسول الله ﷺ: عليكِ بالرفق" [١٨٣].

هذا الحديث جُزءًا مُضافاً من حديث الرسول ﷺ المروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها: " إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه" [١٨٤]. والرسول هنا يربط هذا المفهوم بكل جوانب الحياة، ليشمل الإنسان والحيوان وكل المخلوقات والتصرفات، فقد قست السيدة عائشة بعض الشيء على البعير، لأنه فيه صعوبة، ذكرها الرسول بالرفق، ليكون قاعدة عامة شاملة كل المخلوقات والتصرفات.

١٨٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، رقم ٢٥٩٤.
١٨٤) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، رقم ٢٥٩٤.

– عن معاذ بن جبل ﷺ قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما غضبًا شديدًا حتى خُيّل إليّ أن أنفه يتمرّع من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب، فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم. قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ومحك، وجعل يزداد غضبًا" (١٨٥).

الغضب ثورة بالغة القوة، ومفسدة للنفس، والرجل في الحديث السابق، يتمرّع أي يتجاوز في غضبه ويشتد، والرسول ﷺ نصح مَنْ حوله، لأن الغاضب في حالة عدم تلق وتوجيه، وكانت النصيحة بسيطة وهي ترديد الدعاء: "اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم"، إلا أن الرجل يأبى، ولكن الموقف يسجل نصيحة لكل المسلمين وقت غضبهم.

– عن عائشة ﷺ قالت: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟ (١٨٦). وهذا دال على رقة الرسول ﷺ وتوجيهاته، فلا يتعمد التوجيه المباشر المحرج للفرد، وإنما يجعل الأمر قضية عامة، دون تخصيص، فيتقبل النصح فيها كل مسلم، وتتناقلها الألسنة.

د) الرسول يفعل الحدث ويعلق عليه:

وهذا يكون الحادث من فعل الرسول ﷺ، ومن ثم يكون تعليقه عليه إرشادًا وهديًا، ويبدو هذا في مواقف الدعابة أو في الوقوف عند بعض الجمادات والأمتعة.

– يذكر أن "رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهرًا، وكان يُهدي إلى النبي ﷺ هدية من البادية، فيجهّزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: "إن زاهرًا باديتنا، ونحن حاضروه" (أي هو المقيم في البادية، ونحن حاضرو المدينة

١٨٥) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٨٠.
١٨٦) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٨٨.

له) "وكان ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميمًا، فأتاه النبي يومًا، وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، وهو لا يبصره، فقال: من هذا؟ أرسلني. فالتفت، فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي، حين عرفه، فجعل النبي ﷺ يقول: من يشتري هذا العبد؟ فقال: يا رسول الله ! إذًا والله تجدني كاسدًا. فقال النبي ﷺ: ولكن عند الله لست بكاسد. أو قال: أنت عند الله غالٍ" (١٨٧).

إننا أمام موقف رائع، موقف يعبِّر عن علاقة عميقة، بين زاهر البدوي، والرسول ﷺ، ولننظر إلى هذه العلاقة الممتدة، زاهر يهدي للنبي، والنبي يجهزه عند سفره إلى البادية، فزاهر بادية للمسلمين والمسلمون حاضرون له، في إشارة إلى نبذ التنابز والتفرق بين أهل البادية وأهل الحضر. ومن شدة حب الرسول لزاهر، نرى موقفًا جميلاً، الرسول يحتضن زاهرًا وهو أسمر الوجه، ويبيعه – ضحكًا – للناس، وزاهر يبادله الدعابة، ويقول لن تجد من يشتريني يا رسول الله، إلا أن الرسول الذي لا يقول إلا حقًا، ولا يداعب إلا بحث، يعيده إلى لُبِّ القضية، قضية التقوى، التي هي معيار القبول عند الله، فيقول: "أنت عند الله غالٍ".

– عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ، قَالَ كُنْتُ مَعَ الرَّكْبِ الَّذِينَ وَقَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّخْلَةِ الْمَيِّتَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا حِينَ أَلْقَوْهَا". قَالُوا مِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ "فَالدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا"(١٨٨) . لقد أوقف الرسول ﷺ أصحابه عند سخلة ميتة (والسخلة ولد الشاة) ما كان (١٨٩)، ويطرح سؤالاً معلوم جوابه مسبقًا: أهذه الشاة هانت على أصحابها حينما ألقوها؟ وبالطبع، كانت الإجابة متوقعة، لأن أصحاب الشاة ألقوها، إيقانًا أن لا فائدة منها وهي ميتة. ومن ثم يقلب الرسول الموقف إلى معنى سام؛ هكذا الدنيا، هينة على الله تعالى، وهو الخالق العظيم.

---

(١٨٧) مختصر الشمائل المحمدية، للإمام أبي عيسى محمد بن سورة الترمذي، اختصره وحققه : محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط٤، ١٤١٣هـ ص ١٢٧، ١٢٨. ذكر أنه حديث صحيح.

١٨٨) سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي ، نشر موقع www.al-eman.com (نداء الإيمان)، مكتبة التراث الإسلامي.
كتاب الزهد، رقم ٢٤٩١ (حَدِيثٌ حَسَنٌ).

١٨٩) القاموس المحيط، الفيروزأبادي، مادة سخل، ص١٣١٠.

وهكذا يستثمر الرسول ﷺ مختلف المواقف والمظاهر في الحياة، حتى النفايات، من أجل تعزيز الآخرة في النفوس، موضحا أن الأمر كله لا يحتاج إلى تصارع وتكالب، مادامت الدنيا لا تساوي عند الله هذه الشاة الميتة.

هـ) التعليق بقول موجز وفعل سلوكي:

فهناك أحداث تحتاج إلى الفعل أولاً، ثم يكون القول، وهذا يقدر بقدره حسب الفعل، وموقف الناس من الفاعل، وقد يكون القول توجيهًا لسلوك أو قولاً عامًّا.

– عن أنس بن مالك ﷺ أن أعرابيًا بال في المسجد، فقاموا إليه، فقال رسول الله ﷺ: "لا تزرموه، ثم دعا بدلو من ماء فصبّ عليه" (١٩٠). فالأعرابي يتصرف دون وعي للخطأ الجسيم الذي فعله، ويبدو أنه حديث عهد بالإسلام، إنه يتبول في المسجد أمام الناس، فعل مشين، نجاسة في أطهر البقاع، فيهمُّ الصحابة رضوان الله عليهم بالرجل، ولكن الرسول يوقفهم، ويطلب منهم عدم إزعاجه (إيقافه)، ثم الأمر الفوري أن يضعوا الماء على البولة للتنظيف والرجل سيفهم سوء ما فعل، وسيصلح من سلوكياته بلا شك، ما دام التوجيه هادئًا، وبحلمٍ وأناةٍ كبيرين.

– "كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: لم تُراعوا، لم تراعوا. وهو على فرس لأبي طلحة عريٍ ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: لقد وجدته بحرًا (أي وجد الفرس جوادًا سهلاً كالبحر) أو إنه لبحر" (١٩١).

فإذا فزع الناس لصوت، فإن الرسول كان أسبقهم في الخروج، إنه يخاف عليهم، فهو جزء منه، يسبق الناس إلى مصدر الصوت، ويعود ليخبرهم بهدوء ويطمئنهم، باسمًا، فالمسألة سهلة، إنه جواد راكض كالبحر عالي الصوت.

---

(١٩٠) صحيح البخاري، ج٤، كتاب الأدب، ص٩٦.

(١٩١) صحيح البخاري، ج٤، كتاب الأدب، ص٩٧.

– قال أبو هريرة ﷺ، كان النبي ﷺ يجلس معنا في المجلس يحدثنا، فإذا قام قمنا قيامًا، حتى نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه، فحدثنا يومًا فقمنا حين قام، فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه، فجبذه بردائه فحمر رقبته. قال أبو هريرة: وكان رداءه خشنًا. فالتفتَ. فقال له الأعرابي: احمل لي على بعيريّ هذين فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك. فقال النبي ﷺ: لا، وأستغفر الله، لا، وأستغفر الله، لا، وأستغفر الله لا أحمل حتى تَقيدَني من جبذتك التي جبذتني". فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها. قال (أبو هريرة): ثم دعا رجلاً فقال له: احمل له على بعيريه هذين، على بعير شعيرًا، وعلى الآخر تمرًا. ثم التفتَ إلينا فقال: انصرفوا على بركة الله" (١٩٢).

إننا أمام موقف غاية في الرقي الإنساني، الرسول ﷺ خاتم النبيين، وسيد العالمين، في موقف قاسٍ مع أعرابي، تبدو عليه الغلظة في التعامل، لا يعرف مقدار الرسول، ولا سبل التعامل اللطيف، لقد جاء مطالبًا ببعض الأعطيات من بيت مال المسلمين، والرسول قائم عليه، وكان الطلب بعنف فقد جذب الأعرابي المصطفى ﷺ بشدة، وحين طالبه الرسول أن يعتذر مما فعل يأبى الأعرابي. الغريب أن الرسول يتنازل، ويطلب من أحد صحابته الكرام أن يحمل للرجل شعيرًا وتمرًا، في إشارة إلى تجاوزه عما فعل الأعرابي، فالرسول هنا نموذج واضح للحلم والأناة وحسن التصرف. والحلم كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي: "أفضل من كظم الغيظ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم، أي: تكلّف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ، إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك صار ذلك اعتيادا فلا يهيجه الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهذا هو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل، واستيلائه، وانكسار قوة الغضب، وخضوعها للعقل، ويكون ابتداؤه التحلّم وكظم الغيظ تكلفا، ويعتاد ذلك..." (١٩٣). فالإمام الغزالي هنا، يتحدث عن صفة الحلم عامة، وكيفية غرسها

١٩٢) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٧٥.
١٩٣) إحياء علوم الدين، م س، ج٣، ص١٧٦.

في النفس، وهذه الصفة تكتسب بالمران والتربية، أما رسولنا ﷺ فقد كان النموذج في الحلم: صفةً وطبعًا وخلقًا، وتصرفه الذي رأيناه هنا دليل على ذلك.

على هامش هذا الحديث - أيضًا - نجد أمورًا: أولها: بساطة ما يرتديه الرسول فقد كان رداءً خشنًا، ولو شاء لارتدى اللين والفخم من الثياب.

ثانيها: أن الرسول أدرك أن الأعرابي حديث عهد بالإسلام، لا يعرف مكانة الرسول الهادي، ولكنه يدرك أن من حقوقه أن يأخذ من بيت المال، وقد تنازل الرسول له عن حقه الخاص في الجبذة الشديدة، وأعطى الأعرابي ما أراد.

ثالثها: أن الصحابة كانوا بمقدورهم أن يدفعوا الأعرابي، ولكنهم لم يتحركوا لفعل شيء في انتظار تصرف الرسول مع الرجل، وهو تصرف دال على مسامحة، وحرص على امتلاك قلب الأعرابي للإسلام، وتأليف قلبه بالعطاء.

رابعها: أن الرسول اكتفى بالفعل على القول، فلم يعنف الأعرابي، ولم يتحدث عن جدوى ما فعل مع الصحابة، وإنما أمرهم أن يعطوا الرجل، وأن ينصرفوا، فالفائدة هنا سلوكية: تسامح وتنازل عن حق النفس تحبيبا للقلوب في هذا الدين. وتطبيقا لقول الله تعالى: { **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** }[١٩٤]. وهنا تتبلور القوة النفسية للمحاور بتفعيل مفهوم "الدفع" القرآني، بالتعامل الحسن مع الظالم ويكون العفو والعطاء وسماحة النفس هي السمات النفسية في أعماق من يلجأ إلى قانون الدفع"[١٩٥]، وهذا ما قام به الرسول ﷺ مع الرجل البدوي.

- قال أنس (خادم الرسول): كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب - وفي نفسي لا أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ. قال (أنس): فخرجت، حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق. فإذا رسول الله ﷺ قابض على قفاي من ورائي، فنظرت إليه، وهو يضحك، فقال: يا أنيس، اذهب حيث أمرتك. قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله.

---

١٩٤) سورة فصلت، الآية (٣٤).

١٩٥) انظر : قيادة الذات وإدارتها، نسيبة عبد العزيز المطوع، سلسلة رؤية تربوية، على نفقة المؤلفة، الكويت، ط٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ص٩٤.

قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين، أو تسع سنين ما علمت قال لشيء صنعت: لم فعلت كذا وكذا، ولا لشيء تركت: هلا فعلت كذا وكذا [١٩٦].

هنا نرى رواية الحديث على لسان أنس خادم الرسول ﷺ ونرى كيف كان يتعامل الرسول بلطف ورقة مع خادمه، فهو يقدر روح اللعب في الخادم، ويوجهه برفق، ويضحك له. ولننظر إلى مناداة الرسول للخادم، لقد استخدم صيغة "أنيس" وهي تصغير أنس، والتصغير هنا دلالة على المحبة والقرب [١٩٧]، واستعمال الألفاظ المحببة إلى النفس في التربية والدعوة إلى الله، يستثير عواطف من ندعوهم، ويشعرهم بالقرب من النفس، فيصل كلام الداعية إلى القلب مباشرة [١٩٨].

ومن خلال الحوار اللطيف والعبارات البسيطة، يوجه الرسول غلامه، ويشهد الغلام أنس رضي الله عنه بحُسن معاملة الرسول ﷺ فترة خدمة أنس له: سبع أو تسع سنين.

١٩٦) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٧٣.

١٩٧) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، عبد الله بن عقيل، دار التراث، القاهرة، ط٢٠، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، المجلد الثاني، ج٤، ص١٣٩، ١٤٠.

١٩٨) انظر : المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام، ج١، م س، ص٢٠٣.

openkan.com

المبحث الرابع

القصة نموذجًا للحوار

يتناول هذا المبحث أحد أشكال التعبير في الأحاديث النبوية الشريفة، وهي شكل القصة، والقصة في مفهومها البسيط فنٌّ يعتمد على الحكاية، وفي الحكاية أحداث وشخوص ومكان وزمان، حيث ينبع مصطلح "القص" –معجميًا– من تتبع الأثر، ثم تطور إلى معنى الحكاية، ويكاد الخبر والقصة يتفقان في الدلالة على الحكي(١٩٩)، وبالنظر إلى استعمالات القصة المختلفة نجد أنها لا تخرج عن ذلك المدلول، وإن أصبحت مصطلحًا عامًا، ينتظم الفن القصصي بأسره على اختلاف أشكاله(٢٠٠). فعندما نذكر "القص" أو "القصص" لا نقصد فن القصة القصيرة أو القصة الطويلة أو الرواية، بل المقصود دلالة القص عامة. وقبل ذلك دلالة وأغراض يريدها منشئ القصة ومقدمها.

أجاد الرسول ﷺ في توظيف القصة في أحاديثه الشريفة توظيفًا يخدم القيم السامية التي يرومها، خاصة أن النفس البشرية تميل إلى سماع القصص، وتحتفي بالحكايات، ويسهل إيصال المعلومة والحكمة عبر القصة، بدلاً من القول المباشر.

ولسنا بصدد عرض أبرز القصص التي وردت في كتب الصحاح، بقدر ما يهمنا أن نتعرف على القصص بوصفها شكلاً من أشكال الحوار الذي استخدمه الرسول ﷺ، وهو شكل موظف في ثنايا الحوار، لذا فإن تناول القصة في هذا المبحث سيكون خاضعًا لآلية الحوار، بمعنى أن القصة ستكون واردة ضمن سياق الحوار النبوي، فهي خاضعة لمنطق الحوار الذي تكون القصة فيه مثالاً أو دليلاً أو تعليلاً أو وسيلة لتوصيل مفهوم أو معلومة.

---

(١٩٩) لسان العرب، ابن منظور، ج٥، ص١٠٢. يشير إلى أن القص يعني تتبع الأثر، والقص والخبر مترادفان، والقصص هي الخبر المقصوص (المحكي)، و القاص هو الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها.وانظر أيضًا : المعجم الوسيط، ج١، ص٢٢٢.

(٢٠٠) انظر : فن القصة القصيرة ، د. عبد الحميد يونس، دار المعرفة، القاهرة، ص١٢

وعليه يمكن أن نقسم أشكال القصص في الحوار النبوي إلى عدة أشكال:

١) المثل القصصي:

حيث تكون القصة مثالاً يبسط المفهوم والمراد، وهذا المثال مجرد قصة بأحداث مفترضة، لذا هي تقترب من شكل المثال العام، أو القص المتخيل، الذي يلامس حياة المتلقي بشكل عام، ويبدأ متن الحديث بطرح مفهوم وتأتي القصة توضيحًا لهذا المفهوما وتبسيطًا له.

– عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ: قال: (مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قومًا، يعملون له عملاً يومًا إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر أجيرين بعدهم، فقال لهما: أكملا بقية يومكما هذا، ولكما الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالا: لك ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال لهما: أكملا بقية عملكما، ما بقي من النهار شيء يسير، فأبيا، واستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور)[٢٠١].

فقد جاء استهلال الحديث بمقارنة بين: المسلمين واليهود والنصارى، وجاء الاستهلال غير مكتمل، فلم نعرف مثل أصحاب الديانات الثلاث بماذا، فقد ارتبط هذا المثل بالقصة المروية، وجاءت القصة – نحويًا – خبرًا للمبتدأ (مثل)، وهذا يعني التعاضد اللغوي والبنائي بين جوانب الحديث الشريف، ونعلم أن المضمون الكُلي للقصة هو المقارنة بين جهود أصحاب الديانات الثلاث في الوفاء بخدمة الإسلام والذود عنه، ونيل ثواب إتمام دعوته وإكمال أركانه. فالفريق الأول عمل منتصف النهار، ولم يستطع أن يكمل العمل، فغادر متنازلاً عن الأجر، والفريق

٢٠١) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الإجارة، ص١٣٣، رقم ٢٢٧١.

الثاني عمل إلى العصر، وغادر رغم أن المتبقي على آخر اليوم شيء يسير، ولكنهم غادروا متنازلين عن الأجر، أما الفريق الثالث فقد أتمَّ العمل حسب الوقت ونال الأجر.

في الحديث أمور عدة: أن الرسول ﷺ: جعل الديانات السماوية الأساسية الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام في بوتقة واحدة، وهذا دليل على اعتراف الإسلام بالنبوات والرسالات السابقة، وأنها وغيرها من دعوات أنبياء الله تخرج من مشكاة واحدة، بغض النظر عن التبدل والتحريف في بعضها، وهنا جعل الرسول ﷺ: استيفاء العمل هو الأساس في قبوله، وأن الخالق عز وجل يستوفي كل أمة أجرها، ولكن التقاعس بشري.

أيضًا، ارتكز الحديث الشريف على الحوار بشكل خفي، فقد كان مطلع الحديث ثم المثل القصصي المقدم معتمدًا على بناء حواري يتمثل في المقارنة بين: جهود أتباع الديانات الثلاث، وقد نال المسلمون الأجر كاملاً لأنهم تحملوا مشاق العمل، وأتموه لوقته، فنالوا أجر من سبقهم، مصداقًا لقوله: "واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور"، ولننظر إلى لفظة "النور" الذي ختم بها الحديث، فهي معبرة عن أن نور المشكاة واحد في ضوئه، ولكن أين من يتلقى الضوء كاملاً: إيمانًا وعملاً وجهادًا.

في الحديث السابق أيضًا: عدم التمييز بين اليهود والنصارى في العمل، ويبدو من الترتيب في المثل القصصي أن الرسول يقصد بالفريق الأول: اليهود. والنصارى هم الفريق الثاني، أما المسلمون فهم الفريق الثالث، فهذا ترتيب زمني تتابعي، يبسط مفهوم الجهد البشري في تلقي الإيمان والنهوض به.

– عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: الخيل لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر: فأمَّا الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال بها في مرج أو روضة، فما أصابت في طِيَلِها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنه انقطع طيلها، فاستنت شرفًا أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها

حسنات له، ولو أنها مرَّتْ بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي كان ذلك حسنات له، فهي لذلك أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ثم لم ينسَ حق الله في رقابها، ولا ظهروها، فهي لذلك ستر. ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً لأهل الإسلام، فهي على ذلك وزر[٢٠٢].

يعتمد هذا الحديث على المقارنة أيضًا، مقارنة بين حابس الخيل، فهي على ثلاثة أحوال: الأول: أن تكون أجرًا لرجل نذرها للجهاد في سبيل الله: محاربةً للكفر، وتحريرًا للأرض، ودفاعًا عن حرمات الإسلام، وهذا بأن يجعل صاحبها خيله نذرًا لله تعالى، فهي محبوسة من أجل ساعة الجهاد، فيُثاب على خدمته لها، وهي مثوبة تبدأ من ساعة تهيئتها للجهاد، فكل ما يقوم به صاحبها من أجلها ينال الثواب عليه، فلو قام على رعيها في حديقة أو مرج، فهو مثاب على ذلك، حتى لو أنه تركها ترعى أو تشرب من نهر غير عامد، يناله الأجر أيضًا، فالأجر موقوف على النية. وهذا مصداقٌ لقوله تعالى: { **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ** }[٢٠٣]، وهناك تناص (اقتباس) من المصطلح القرآني "رباط الخيل"، في تواشج ما بين القرآن والحديث الشريف، وتعميق الدلالات القرآنية، وهي واضحة على امتداد الأحاديث النبوية.

والحال الثاني: أن تكون سترًا أي مانعة عن النار لصاحبها، وهذه تكون لرجل ربَّى الخيل كمالٍ ورزقٍ له ولعياله، وأدَّى زكاة الله فيها، فهي ستر له.

والحال الثالث: أن تكون وِزرًا وسوءًا ومصدرًا لشقاء صاحبها وهذا لمن يربط الخيل تكبرًا بين الناس، وخيلاءً له ولعياله، فتزيد نفسه غرورًا، وسلوكه سطوةً، وتصرفاته عنفوانًا، فيضر من حوله من المسلمين وغير المسلمين، فتكون الخيل هنا وبالا وسيئات عليه. وهذه مصداق للآية الكريمة: { **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ**

٢٠٢) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الشرب والمساقاة، ص١٦٧، رقم ٢٣٧١.
٢٠٣) سورة الأنفال، الآية (١٦).

وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[٢٠٤]. والخيل المسوّمة هي الخيل المطهمة والراعية الحسان[٢٠٥]، وهي شهوة ومما يحبه المرء في دنياه، وتتقارب في الدلالة مع المركبات الحديثة الفارهة، كوسيلة ركوب.

في الحديث حضٌّ على الجهاد، وعلى العمل وإخراج الصدقات، وعلى التواضع، عبر تبيان سبيل تعامل المسلم مع الخيل، فإمَّا أن تكون للجهاد، أو تكون وسيلة رزق ومن ثم إخراج حق الله فيها من زكاة وصدقة، ثم النهي عن اتخاذها وسيلة للتكبر، بين الناس عندما يعتلون ظهورها.

استهل الرسول ﷺ: حديثه بإجمال ثم أعقبه بتفصيل، والإجمال جاء قاعدة أساسية في التعامل مع الخيل، وهو تعامل نفسي أخلاقي ينطلق من منظومة الإسلام في تربية النفس البشرية حتى لا يطغى الشح والتكبر عليها، وتصبح الممتلكات وسيلة للخير والجهاد والتواضع.

٢) قصص الرحمة بالحيوان:

ويُقصد بها القصص الواقعية التي بها مظاهر الحبو على الحيوان، وهي تختلف عن النوع السابق، في كونها قصصًا حقيقية، كما ورد في تفسيرها، وقد رواها الرسول ﷺ: من باب التقرير الواضح للحادثة التي وقعت بالفعل، فالرسول يعيد ذكرها، مؤكدًا وقوعها، ومبيناً نتيجة الفعلة ذاتها ثوابًا أو عقابًا.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: بينما رجل يمشي، فاشتدَّ عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرا ؟ قال: في كل كبد رطبة أجر" [٢٠٦].

---

٢٠٤) سورة آل عمران، الآية (١٤).

٢٠٥) تفسير ابن كثير، ج١، ص٤٠٤، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقد ورد في التفسير أن حب الخير على ثلاثة أقسام، هي المذكورة في الحديث الشريف المتقدم.

٢٠٦) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الشرب والمساقاة، ص١٦٥، رقم ٢٣٦٣.

هذا الحديث نزل في أحد رجال بني إسرائيل؛ نال مغفرة من الله تعالى لأنه سقى كلبًا كاد يموت عطشًا، فقد نزل بئرًا فشرب، فلما صعد وجد كلبًا يلهث من العطش، حتى أنه يلحس التراب لحسًا، فنزل البئر، فملأ خُفَّه (حذاءه) ماءً، ثم وضعه في فمه، وصعد البئر، وسقى الكلب، فنال الشكر من الله تعالى، وأيضًا المغفرة الواسعة.

ومن الموقف المذكور، خرجت الحكمة الشاملة من الحديث أن "في كل كبد رطبة أجر"، فالمراد من الرطوبة الحياة، والرطوبة تتأتى من الماء [٢٠٧]. وهذا الأمر على سبيل الوجوب.

ونرى في الحديث أن الصحابة طرحوا سؤالاً على الرسولﷺ: فهل ينالون ثوابًا إذا أحسنوا للبهائم عامة؟، وجاءت الإجابة مؤسِّسة لحكم عام في الترفق بالبهائم. وقد اعتمدت بنيةُ الحديث القصةَ مطلعًا، ومن ثم كان الحوار استفهاميًا عن ثواب من يحسن للبهائم في العموم.

– عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول اللهﷺ قال: (عُذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها النار). قال: فقال والله أعلم: لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض [٢٠٨].

فهذه المرأة دخلت النار لأنها حبست القطة، لم تقم بإطعامها وسقيها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض؛ أي هوامها وحشراتها، وقد جاء في شرح الحديث الشريف: أن المرأة غير مأمورة بقتل القطة، لأنها لم تفعل شيئًا، وإنما حبستها دون ذنب، فدخلت النار[٢٠٩]. والقصد هنا: الرأفة بالحيوان ورعايته وعدم

---

٢٠٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المساقاة، فصل سقي الماء. حيث يقول الإمام النووي تعقيبا على الحديث الشريف : إن عمومه مخصوص بالحيوان المحترم وهو ما لم يؤمر بقتله فيحصل الثواب بسقيه، ويلتحق به إطعامه وغير ذلك من وجوه الإحسان إليه.

٢٠٨) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الشرب والمساقاة، ص١٦٦، رقم ٢٣٦٥.

٢٠٩) فتح الباري، كتاب المساقاة، فضل سقي الماء، وقد جاء فيه : " قال ابن المنير: دل الحديث على تحريم قتل من لم يؤمر بقتله عطشا ولو كان هرة وليس فيه ثواب السقي ولكن كفى بالسلامة فضلا.

إيذائه. وجاء بناء الحديث: ذكر القصة بإيجاز شمل حبس القطة، حتى الموت جوعًا، ثم العاقبة أن دخلت صاحبتها النار في الشطر الأول. ثم جاء الشطر الثاني: جاء تعليلاً لسبب دخولها النار، وهو تعليل منطلق من رحابة الرحمة العامة بمخلوقات الله تعالى، فإن لم نرعها، فلنتركها تنل رزقها المقدر من قبل الله تعالى، فهو رازقٌ مخلوقاته، فكأننا أشبه ببناء حواري على شطرين: شطر قصصي، وشطر تعليل له.

٣) قصص الصالحين من الأمم السابقة:

وهي قصص مروية عن الصالحين من الأمم السابقة، وقد جاءت ضمن سياق الحكاية الطويلة نوعًا ما، بها الكثير مما يمكن التحاور حوله، وهي قصص مكتملة الدلالة، واضحة في إرشادها، تبرهن من خلال كونها حدثت بالفعل على كثير من القيم الإنسانية والإسلامية العظيمة.

– عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجّيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فناء بي في طلب شيء يوما، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج، قال النبي ﷺ: وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي، فأدرتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمَّتْ بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي

وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، قال النبي ﷺ: وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك، من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئًا، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون) (٢١٠).

الحديث السابق كان حوارًا قصصيًا مرويًّا بين الرسول ﷺ وصحابته، وشفاهية الحوار واضحة من بنيته المعتمدة على الحكي المتمهل، الذي نجد أن الرسول يتوقف فيه من آن لآخر، كما يذكر الراوي مثلا: "قال النبي ﷺ: قال الثالث: اللهم... ". فهذا يعني أن الرسول كان يتوقف متأملاً وقع سرده الأحداث على وجوه مستمعيه، وربما يعن لأحدهم سؤال، ولكن متن الحديث يخلو من السؤال لطبيعة التشويق الذي يعتمده المصطفى ﷺ ، ولأن الأحداث واضحة متعللة في تتابعها.

أكَّد الرسول ﷺ في مطلع الحديث على أن القصة واقعة بالفعل، حين قال: "..ممن كان قبلكم "، فهذا توكيد على واقعية الشخوص والأحداث، خاصة أن القصة تنقل السامع إلى أجواء إيمانية خالصة، لا مجال للاجتهاد البشري فيها، فلا سبيل للخروج من كهف في باطن جبل، سُدَّ بابه بصخرة عظيمة، إلا باللجوء إلى المولى سبحانه وتعالى، فقد انعدمت القدرة البشرية في هذا الموقف، وامتحنت القلوب، وبدأت مناجاة العباد لربهم، فالأول أنجاه الله بإخلاصه في طاعة والديه، بموقف أخفض الابن جناح الذُلَّ من الرحمة فيه، حيث ظلَّ واقفًا حاملاً إناء الغبوق، منتظرًا استيقاظ والديه المسنين، حارمًا أبناءه منه. والثاني تعفف عن الوقوع في الفاحشة بعدما امتلك جسد ابنة عمه وهي أحب الناس إليه، وقام خوفًا

٢١٠) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الإجارة، ص١٣٤، رقم ٢٢٧٢.

من عقاب الله. والثالث: يؤدي أمانة أجر رجل عمل عنده يومًا، ولكنه يؤديه أضعافًا مضاعفة: خيلاً ورقيقًا وأنعامًا، ولو شاء لاكتفى بإعطاء الأجير أجره فحسب، خصوصًا أنه غادر دون أن يطالب بأجره.

المواقف الثلاثة فيها أمور عدة:

أولها: إنها تمثل أشد لحظات الإخلاص لله تعالى.

ثانيها: إنها متدرجة في طبيعة الاختبار ذاته، فالموقف الأول أقل امتحانًا للقلب من الموقف الثاني حيث شهوة الجسد، ورغبة النفس، ولكنه يترفع، أما الثالث فهو يعطي ثمرة تعبه في استثمار أجر الرجل، عن طيب خاطر، وحب النفس للمال شديد.

ثالثها: إن الابتلاء متنوع في كل موقف ما بين فتنة الولد، وفتنة المرأة، وفتنة المال.

رابعها: إن القيم إنسانية الطابع، ما بين طاعة الوالدين، وإعفاف النساء، وإعطاء حق الأجير/ العامل، وهي قيم سامية مشتركة بين البشر، في الأديان السابقة بدليل أن القصة حدثت في أمم سابقة، ثم عززها الإسلام وشدد عليها.

خامسها: إن بناء القصة يعتمد على المناجاة الخالصة للعبد مع ربه، بأشد مواقف الإخلاص والعبودية المطلقة لله تعالى، وهذه المناجاة حوار موصول مع الله.

سادسها: إن الطابع الحواري واضح في ثنايا القصة، فكل موقف يجعل النفس تتحاور حول مدى ترسخ هذه القيم في النفس، وهي قيم أساسية في نفس كل مسلم، وثابتة في مختلف الأديان السماوية المنزلة من عند الله تعالى. كما أن الشخصيات الثلاثة بمواقفها المختلفة شكَّلت بناءً حواريًا فيما بينها، فالتنوع يجعل الذهن متفكرًا، مقارنًا، طارحًا الأسئلة، أي متحاورًا مع الشخصيات والأحداث.

سابعها: إن هذه القصة، وغيرها من القصص النبوي، تثير في السامع الشعور بالتفاؤل، والأمل في الله تعالى دائمًا، وأن الأمور مهما اشتدت، وعظُم سوادُها فإنها إلى انفراج مادام العبد حسن الظن، صادق التوكل على الله تعالى. والتفاؤل

شعور "بتوقع الخير الذي يؤدي إلى الرضا والفرح والسرور، ثم السعادة، وما ينعكس عنه من أثر إيجابي...، يدفعه إلى البحث عن وسائل عمل الخير، والرغبة في فعله، والاستزادة منه" [٢١١]، والهدي النبوي متوافق مع الفطرة البشرية، لأن النفس تميل بطبعها إلى الأمل، والرغبة في الخير. أما التشاؤم من المنظور الإنساني والإسلامي؛ فأمرٌ يحبط النفس ويؤدي إلى عدم الرضا، والشعور بالحزن، والكره والغضب، وانقباض النفس، وهذا كله له أثر سلبي على توجه الإنسان نحو الخيرات، بل انعدام الرغبة في الفعل[٢١٢]. وكما يقول الرسول ﷺ (فيما يرويه أبو هريرة): "لا طيرة، وخيرها الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة، يسمعها أحدكم" [٢١٣]. والكلمة الصالحة في مجملها تغرس الفأل الحسن في النفس، وتمثل قصص الرسول كلها أملاً في النجاة والفوز والفلاح، والتوفيق من الله حاضر في كل موقف، ماداد العبد مرتكنًا، متوكلاً على ربه تعالى.

– عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ: أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل، سأل بعضهم بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدًا، قال فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلا، فرضي بك، وسألني شهيدًا فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي أسلفه، ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها

---

٢١١) التفاؤل والتشاؤم في الحديث النبوي (دراسة موضوعية)، د. أمين محمد القضاة، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد (٥٢)، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ص ٩٨.

٢١٢) انظر : المرجع السابق، ص٩٨ وأيضا : ص ١٠٣.

٢١٣) صحيح البخاري، كتاب الطب، رقم ٥٧٥٤، ج٤، ص٤٦.

المال فأخذها لأهله حطبًا فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشدا[٢١٤].

هذه القصة تعبِّر عن الصدق العالي مع الله تعالى، فمن أحسن الظن بالله، كان الله تعالى عند ظنه، وقد أشهد المقترض الله على أنه أخذ الألف دينار، وجعل الله وكيله، وأصدق الله وعده. فلما حان موعد الأجل، لم يجد مركبًا، فأدخل الألف دينار في خشبة، ثم ألقاها في البحر، وقد وصلت الألف دينار إلى المقرض عبر البحر، وكان الله تعالى عند حسن ظن الرجلين، فلما سافر المقترض بالألف الثانية؛ خشية أن تكون الأولى ضاعت في البحر، أخبره المقرض أنه تسلمها في اليوم المحدد عبر خشبة جاءته في الماء.

في القصة تسليم مطلق بقدرة الله، وصدق الرجلين فيما بينهما، وتقيم حوارًا غير مباشر في أعماق السامع، إنه حوار مع القيم العليا المترسخة في القصة: الإخلاص، وحسن الظن بالله، والوفاء.

بناء القصة اعتمد على السرد والحوار، والسرد كان مركزا للغاية، ينقل الدلالة المباشرة، عبر مشاهد ثلاثة: مشهد الإقراض، ثم مشهد البحر، ثم مشهد اللقاء الثاني بين الرجلين، وفي كل مشهد نجد صدق الذات مع الله تعالى. وفي المشهدين الأول والثالث: الحوار مكثف بين الرجلين، وكلاهما يثق في الآخر.

– عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: كان رجل من بين إسرائيل يقال له جريج يصلي، فجاءته أمه فدعته فأبى أن يجيبها، فقال: أجيبها أو أصلي؟ ثم أتته فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه المومسات، وكان جريج في صومعته، فقالت امرأة: لأفتنن جريجًا، فتعرضت له، فكلمته فأبى، فأتت راعيًا فأمكنته من

٢١٤) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الكفالة، ص١٤٠، رقم ٢٢٩١.

نفسها، فولدت غلامًا، فقالت: هو من جريح، فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا، من طين [٢١٥].

فحين أبى جريج أن يجيب أمه دعت عليه أن يريه الله وجوه الغانيات المومسات، واستجاب الله لدعائها، وسعت إحداهن لتغويه، ولكنه رفض وتعفف، فذهبت الغانية إلى أحد رعاة الغنم، فزنا بها، وحملت، ووضعت سفاحًا غلامًا، وادعت على جريج أنه والد الغلام، فيثور قومه، وينزلوه من صومعته ويهدوموها، وهنا يلوذ جريج بالصلاة، فيدعو، ويستجيب الله لدعائه، وينطق الغلام أن الراعي أبوه، وحين يرى القوم هذا المشهد، يعتذرون، ويعرضون عليه أن يبنون صومعته من الذهب، فيرفض، ويفضل الطين، ليعود إلى معية الله، وزهده.

قي القصة عدة قيم سامية: طاعة الأم، الاستجابة إلى الأم عند ندائها، وأن دعوة الأم مستجابة، وأن الصلاة ملاذ العبد في محنته، وأن الدعاء مخ العبادة.

جاء بناء القصة في مواقف حوارية موجزة: بين الأم وجريج، وجريج والقوم، وجريج والغلام، فالحوار أقصر السبل الجمالية في الفن القصصي.

٤) قصص من الواقع المعيش:

وهي قصص رويت للرسول عايشها الرسول ﷺ، وكان طرفًا فيها، ومحاورًا لشخوصها، وقد دُوِّنت الكثير منها في كتب السيرة والصحاح، فكانت توثيقًا رائعًا لحياة زاخرة بالقيم والهداية، ونرى في هذه القصص إعلام الله تعالى بأمور غيبية إلى رسوله ﷺ.

– عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت

٢١٥) صحيح البخاري، ج٢، كتاب المظالم والغصب، ص٢٠٢، رقم ٢٤٨٢.

فقال النبيﷺ: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة. قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، قال: أما إنه قد كذبك، وسيعود. فعرفت أنه سيعود، لقول رسول اللهﷺ: إنه سيعود. فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول اللهﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول اللهﷺ: يا أباهريرة ما فعل أسيرك. قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته فخليت سبيله، قال: أما إنه كذبك، وسيعود. فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم لا تعود، ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}. حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول اللهﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟. قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: ما هي؟. قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح – وكانوا أحرص شيء على الخير – فقال النبي ﷺ: أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة. قال: لا. قال: ذاك شيطان [٢١٦].

في هذه القصة نجد ثلاثة شخوص: الرسولﷺ، أبا هريرة الصحابي الجليل، والشخص الذي يحاور أبا هريرة (الشيطان). فقد أمسك أبو هريرة برجل كان يسرق من صدقات شهر رمضان المبارك، فاسترحمه الرجل، مدعيًّا الفقر وحاجته وحاجة عياله، فتركه أبو هريرة، فأعلم الله تعالى رسوله الكريم بما حدث، فسأل الرسول أبا هريرة عن خبر الرجل، فلما أخبره أبو هريرة بما حدث، أخبره الرسول أن هذا الرجل سيعود إليه على نحو ما جاء في أحداث القصة، وبالفعل يعود الرجل، مرتين، ويحاور أبا هريرة، ويعلمه آية الكرسي، مثلما علمه الرسول

٢١٦) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الوكالة، ص١٤٩، رقم ٢٣١١.

ﷺ، ويقر الرسول أن هذا الرجل شيطان، وأنه علّم أبا هريرة آية من القرآن فصدق وهو من الكاذبين، وجنّب الله أبا هريرة آثام الشيطان ومسّه وأنجاه منها.

في القصة أمور عدة: إن الرسول ﷺ يحاور أبا هريرة، الذي تعرض لفتنة شيطان، ويهديه إلى حسن التصرف في هذه المواقف، حيث يعتصم بالقرآن الكريم، وبهدي آية الكرسي، فهي حافظة من كل شيطان آثم.

وفيها أيضًا مظهر لنبوة محمد ﷺ حيث يعلم الغيب، وكينونة هذا الرجل الذي أراد أن يفتن أبا هريرة، ويخلط سمه بعسل القرآن، وقد ظل ثلاثة أيام ينبئ أبا هريرة بالمستقبل حتى أعلمه حقيقة الرجل. وكون ظهور الشيطان في هيئة رجل هو واقع، فالشياطين كائنات يمكنها أن تظهر في صور مختلفة، لتفتن الناس وتغويهم، وتدس في سبيل ذلك خبيثها من القول.

– عن أبي سعيد ﷺ قال: انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: {الحمد لله رب العالمين}. فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقي: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله فذكروا له، فقال: وما يدريك أنها رقية. ثم قال: قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا. فضحك النبي ﷺ[٢١٧].

---

٢١٧) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الإجارة، ص١٣٦، رقم ٢٢٧٦. وذكر أيضا : قال ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله. وقال الشعبي: لا يشترط المعلم، إلا أن يعطى شيئا فليقبله. وقال الحكم: لم أسمع أحدا كره أجر المعلم. وأعطى الحسن دراهم عشرة. ولم ير ابن سيرين بأجر القسام بأسا. وقال: كان يقال: السحت: الرشوة في الحكم، وكانوا يعطون على الخرص.

كان الرسول ﷺ في هذه القصة شاهدًا مقرًا على أحداثها، وهي قصة تثبت التداوي بآيات القرآن الكريم خاصة آيات فاتحة الكتاب؛ وقد شفى زعيم القوم بهذه الآيات، وحين عرض الأمر على الرسول ضحك مُقرا أن الفاتحة شفاء لأمراض الجسد، وقد كان الموقف توفيقا من الله للرجل الذي أرقى زعيم القوم وأشفاه بفضل فاتحة الكتاب.

القصة بهذا الشكل تلامس الحدث، فهي مروية على لسان أبي سعيد راوي الحديث، الذي رواها للرسول ﷺ ومن ثم جاء تعقيب الرسول بأن المداوي بالفاتحة قد أصاب، وطلب سهمًا معهم فيما أخذوه، ثم ضحك الرسول ﷺ، فهو سعيد بأن أحد هؤلاء النفر المسلمين قد اهتدى بخالص إيمانه إلى الاستشفاء بأم الكتاب (الفاتحة).

– عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها دَخَلَتِ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا فَسَأَلَتْ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: مَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ"[٢١٨]

الموقف عظيم التأثير في النفس، فهذه امرأة لا عائل لها، ومعها ابنتان صغيرتان، وهن يعانين الفقر الشديد، بدليل أنهن يسألن الطعام، وحين يغدون إلى بيت رسول الله ﷺ، يسألن زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها، ولم تجد السيدة عائشة إلا تمرة واحدة، أعطتها المرأة، فقسمتها المرأة بين ابنتيها. وحيت روت السيدة عائشة الحادثة إلى الرسول، جعل من كفل هذه البنات ينال الستر من النار يوم القيامة.

في الحديث دلالات عالية: فبيت السيدة عائشة رضي الله عنها ، زوج الرسول، حاكم المسلمين، ورسولهم وقائدهم، لا طعام فيه، وهذا دليل على الزهد وكثرة الصدقات من الرسول وآل بيته. كذلك، فإن المجتمع في المدينة المنورة فيه تكافل كبير وكان أهل بيت النبي يتقدمون الناس في التصدق، فها هي الأم وابنتاها يدخلن على بيت رسول الله، وينلنَّ ما فيه من على قلته الشديدة ويرضين، لأن في علمهن المسبق أن أزواج النبي كثيرات الصدقة والبر.

٢١٨) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، الحديث رقم ٢٠٣٩.

لم يترك الرسول الحادثة دون أن يذكر توجيهًا ساميًا، وقد انتقل فيه من الخاص إلى العام، فبشَّر كافل البنات والأم، بشارة أخروية، لينقل القضية كلها إلى دائرة الإثابة، والحفز على رعاية اليتيمات والأرامل، رغم أن الحديث لم يشر إلى أن البنتين يتيمتان، إلا أن السياق دال على أن لا كفيل لهن، فجاء التوجيه النبوي السامي إلى أهمية الاعتناء بهن، على العموم، سواء أن يكفلهن متطوعًا من غير قرابة، أو يكون قريبًا لهن فيتولى أمرهن.

– عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا" (٢١٩).

الموقف غاية في البساطة: رجل كبير السن، يريد النبي في أمر، والنبي بين الناس وهم جالسون، وكل ما حدث: أن القوم تباطئوا في الإفساح له؛ ليقترب من النبي ﷺ، فسارع النبي بترسيخ قاعدة مهمة، تتصل بكيفية التعامل مع كبير السن، وصغيره، إنها قاعدة الرحمة، التي تبدأ بأبسط السلوكيات: الإفساح في المجلس، وتتسع لتشمل القول والفعل والإحسان. وقد ركز الرسول على الفئة العمرية: صغار السن وكبارهم، لأنهم الطرف الأضعف في الاهتمام، فهم ما يكونون غير ذي قوة: في المال والجسد والعمل.

٥) قصص اليوم الآخر:

وهي أحاديث تشير إلى ما سيحدث يوم القيامة من مواقف وأحداث، وقد صيغت بشكل قصصي، يقربنا من الصورة التي ستقع بها، وهو شكل فيه وصف للشخوص والمكان والأحداث بدقة وكثافة لغوية.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ فَقَالَ اذْهَبْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ

٢١٩) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، الحديث رقم ٢٠٤٣.

بِالْمَكَارِهِ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لاَ يَدْخُلُهَا أَحَدٌ. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَقَالَ ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا. فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَرَجَعَ وَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا"(٢٢٠).

إننا أمام قصة متكاملة جوانب السرد: الوصف، المتكلمين، الحوار. وجاء الزمان في المطلق الأبدي الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وكذلك المكان في عليين. كان الحوار هو الأساس في بناء القصة، فالله تعالى، خلق الجنة والنار، وجعل مسببات وكمال النعيم في الجنة، وكمال القبح والعذاب في النار، وهنا نجد الحوار بين الله تعالى، وبين جبريل عليه السلام، فالجنة لو سمع بها أحد على ما فيها من خيرات ونعيم أبدي لا حدود له، ولا يخطر على قلب بشر، فإن الناس سيدخلونها، ويتركون النار بما سمعوا عنها من مشاهد العذاب الأبدي. فيأمر الله تعالى أن تُحَفَ الجنة بالمكاره والنار بالشهوات، والمكاره مختلف الواجبات التي يقوم بها المرء وتشمل اجتناب المحرمات (الشهوات المختلفة)، وفعل الطاعات وهي قد تثقل على النفس. أما الشهوات فهي كل ما ترومه النفس وتتمناه مثل شهوتي الفرج والمال، وتسلك في سبيل ذلك مسالك تخالف الشرع، وتضر الآخرين كالزنا والسرقة والنصب والاحتيال والربا.

فمقصد الحديث: أن الجنة ذات نعيم غير محدود، ولكن من طلبها فعليه أن يتجنب المحرمات وما تشتهيه نفسه بطريق غير شرعي، ويتحمل مشقة ذلك على نفسه، ولكن الثمرة أن شهواته سينالها كاملة في الجنات العلا، أما إذا أراد راحة نفسه، وإشباع شهواتها، فإن النار عاقبته في الآخرة. وقد صيغ الحديث بقالب حواري جذاب، بين الله تعالى وسيد الملائكة جبريل عليه السلام، والحديث موجز ولكنه عالي الإشارات والدلالات حول اكتمال اللذائذ في الجنة، واكتمال العذاب في النار.

---

٢٢٠) سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن على بن شعيب بن على بن سنان بن البحر الخراساني، كتاب الأيمان والنذور، الحديث رقم 3779، نشر موقع www.al-eman.com (نداء الإيمان)، مكتبة التراث الإسلامي.

ونلاحظ سمة تميز الأسلوب اللغوي للرسول ﷺ، تتمثل في إعادة توظيف المفردات في دلالات جديدة، فيما يسمى "دلالات اللفظة في السياق"، ويعنى بـــ "بيان دلالات الألفاظ وتحديد معنى الكلمة وإزالة الغموض والكشف عن المعنى المراد في الألفاظ ذات الدلالات المتعددة، التي لا تُعرَف دلالتها، ولا تتضح إلا من خلال السياق" [٢٢١]. ولابد أن يكون في السياق قرائن تسهم في عملية فهم النصوص وبيان معانيها مثل القرائن اللفظية في النص أو نصوص أخرى تسهم في تبيان الدلالات المقصودة[٢٢٢] والقرائن الحالية وهي تعتمد على بيان حال الأشخاص المتكلمين والمخاطبين وغرض المتلكم وبيئة الخطاب[٢٢٣].

فلفظتا: (المكاره، والشهوات)، اكتسبتا دلالتين جديدتين؛ فالمكاره تعني اجتناب ما يكرهه الإنسان من ملذات الحياة المحرمة، وإجبار النفس على فعل الطاعات. أما الشهوات فتعني اللذائذ المحرمة التي تغوي النفس. وقد جاء الفعل "حُفّت" ليعطي الجنة والنار دلالة الصورة الخيالية (الاستعارة المكنية) حيث شبه المكاره والشهوات كسورين يحفان بالجنة أو بالنار، فالسياق للجنة والنار في الحديث الشريف، أعطى الدلالات المشار إليها للمكاره والشهوات.

إن قضية السياق في الحديث النبوي واضحة بجلاء، ويمكن أن نقرِّر أن هناك قاموسًا لغويًا؛ جديد في استخداماته اللغوية أحدثه الرسول ﷺ في تعبيراته، ويمكن أن نرصد ألفاظ هذا القاموس من خلال إعادة قراءة مفردات الحديث النبوي الشريف بشكل أفقي، وهذا دال على ثراء المنشئ، وعمق رسالته.

– عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذ بيده، إذ عرض رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول:

---

٢٢١) السياق وأثره في دلالات الألفاظ (دراسة أصولية)، د. عبد المجيد محمد السوسوه، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد (٧٤)، رمضان ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، ص٢٤.

٢٢٢) المرجع السابق، ص٣٠، والقرائن اللفظية على نوعين : المتصلة : وتكون في مبنى النص نفسه، والمنفصلة وتكون في نصوص أخرى مستقلة عن النص، ولا نفهم الدلالة إلا باستحضار النص الآخر.

٢٢٣) المرجع السابق، ص ٣٩، والقرائن الحالية هي التي تحف بالخطاب من ظروف وملابسات ومقامات مختلفة، والتي سماها العلماء بسياق الحال أو المقام.

أتعرف ذنب كذا: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق، فيقول الأشهاد: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} (٢٢٤).

القصة مشهد يعبِّر عن لحظة الحساب ثم المغفرة من الله تعالى، يوم الحساب، حين يحضر العبد المؤمن بمعاصيه في الدنيا، وهي معاص لا ترقى لمعاصي الكافر ولا المنافق، ونجد أن الرسول ﷺ يصف الموقف بكلمات قليلة، ولكنها تتخذ طابع القصة المشهد الواحد، فالله تعالى يقرّب العبد المؤمن يوم القيامة، ويعرّفه بذنوبه، فيقر المؤمن بما فعل، وتعظم الذنوب أمام عينيه، ويظن أن جهنم جزاؤه، إنها الهلاك، إلا أن الله تعالى يخبر المؤمن بستره الذنوب عليه في الدنيا، ومغفرتها له في الآخرة، أما الكافر والمنافق فلهما لعنة الله على الظالمين.

القصة تقارن بين شخصيات ثلاثة: المؤمن، الكافر، المنافق، وتضع الأخيرين في خندق واحد، بينما ينجو المؤمن بصدقه وإخلاصه وينال مغفرة الذنوب والجنة. فالقصة تذم سلوك المنافق، الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، ويكون كالسوس ينخر في المجتمع المسلم. في الوقت التي تبشر به المؤمن المخلص بالمغفرة، فالدلالة غير المباشرة في القصة: أن الإيمان الصادق والتوحيد الحقيقي هو الأساس في قبول الأعمال والسبيل لمغفرة السيئات. فالمؤمن ذو إيمان ثابت، وتوحيد خالص يضاد الكفر والنفاق.

وقد كان الحوار ديدن الموقف بين الله تعالى، وعبده المؤمن، أما رد الله على الكافر والمنافق فقد جاء بآية قرآنية، ليكون الموقف موضحًا ماهية الكذب على الله وهو إبطان الكفر.

– عن أبي هريرة ﷺ قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، فقال اليهودي: والذي

٢٢٤) صحيح البخاري، ج٢، كتاب المظالم والغصب، ص١٩٠، رقم ٢٤٤١.

اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبيﷺ المسلم، فسأله عن ذلك فأخبره، فقال النبي ﷺ: لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري: أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله [٢٢٥].

القصة تشمل ثلاثة مواقف، الأول: حادثة واقعية، تتمثل سباب الرجلين، المسلم واليهودي، وكلٌ يتباهى بنبيه. الموقف الثاني: شكوى اليهودي للرسول ﷺ من لطمة المسلم له. الموقف الثالث: ذكر الرسول ﷺ موقف صعق الناس يوم القيامة، فلما يفيق محمد من الصعقة، يجد موسى عليه السلام جانب عرش الرحمن، فلا يعلم هل استثنى الله موسى من الصعقة، أو أفاق موسى قبل الرسولﷺ.

في الموقف دلالات عديدة: أولها: كيف أن الرسول ﷺ كان ملاذ الناس في مجتمع المدينة، فهو قاض محايد بين المسلم واليهودي، واليهودي قبل بحكم الرسول في خصومته مع المسلم. ثانيها: إن حكم الرسول كان رفضا لسلوك المسلم، فلا تمييز بين موسى ومحمد، فكلاهما رسول. ثالثها: إن الإسلام يؤمن بفضل موسى، ويعترف به، والرسول يقر بمنزلته العالية عند الله تعالى.

• • • •

ونشير في نهاية الفصل إلى:

إن البناء الحواري في القصص النبوي هو الأساس، فهو يتسق مع طبيعة السرد الشفاهي للأحاديث الشريفة، حيث تتميز قصص الرسول بالكلمات الموجزة التي تنقل أحداث القصة، وهذا النقل يعتمد على أمور في بناء القصة، يمكن أن نجملها مما تقدم من القصص:

٢٢٥ صحيح البخاري، ج٢، كتاب الخصومات، ص١٧٩، رقم ٢٣١١.

– إن السرد في القصص النبوي قصير عامة، لأنه يُلَقى على مستمعين وبالتالي فإن الرسول حريص على الكثافة اللغوية، والعرض بأقل العبارات.

– في السرد القصصي يمكن تمييز "الوقفة الوصفية"[٢٢٦] التي تصف الموقف بدقة، خاصة أن القصص ذات مكان وزمان محدودان، فجاءت القصص النبوية في مجملها قصيرة، تصف أحداثا محددة وبشخوص قلة، رغبة في إيصال رسالتها بشكل ميسر فلا يضيع السامع بين أحداث القصة وطولها.

– في السرد النبوي حوار "درامي الطابع"، والحوار أكثر الآليات القصصية في إيجاز الحدث، وتعميق الدلالة. وفيه أيضًا كلمات من الرسول ﷺ (بوصفه راويًا للقصة) تساهم في تطوير الحدث القصصي، وإفهام المتلقي مغزى القصة [٢٢٧]،

إذا كان الفصل الثاني تناول أشكال الحوار في الأحاديث الشريفة، فإن الفصل الثالث، سيتطرق إلى أبرز القضايا وطبيعة الشخصيات التي حاورها الرسول ﷺ وهي قضايا متعددة، كان الحوار فيها أساسًا في الدعوة.

٢٢٦) قاموس السرديات، جيرالد برنس، ترجمة : السيد إمام، دار ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٣م، ص٤٤.
٢٢٧) السابق، ص٤٥.

openkan.com

obeikan.com